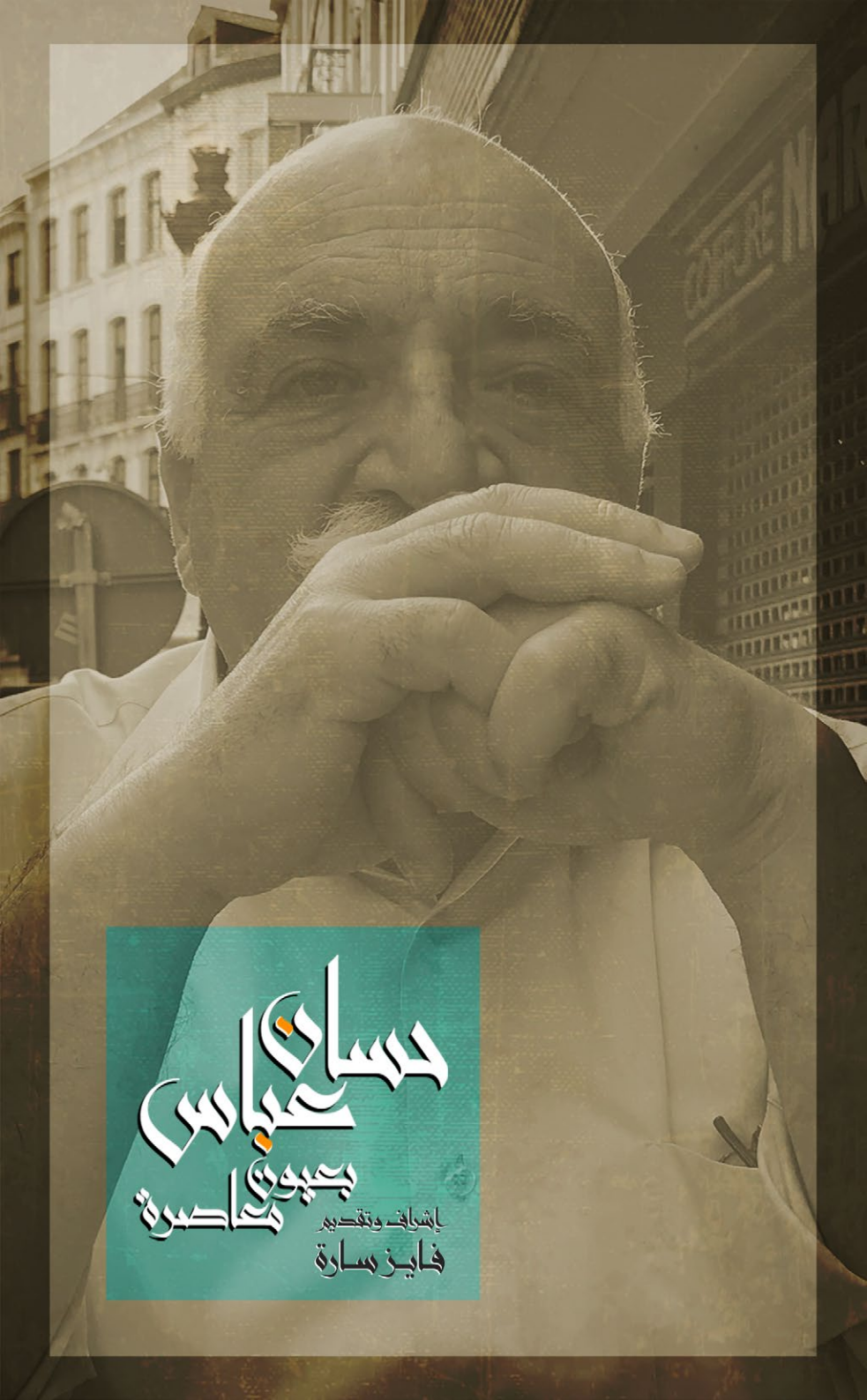

حسان عباس
بعيون معاصرة

إشراف وتقديم
فايز سارة

حسان عباس
بعيون معاصرة

حسان عباس
بعيون معاصرة

إشراف وتقديم: **فايز سارة**

Hassan Abbas
A Modern View

Multiple Authors
Edited by: **Faiz Sara**

شركاء
Partners
منصة نشر إلكترونية غير ربحية
hh34748@gmail.com

Edition 1 \ النسخة الإلكترونية
ISBN: **001504195520**
First published in: **November 2020**
Cover and interior design: **Omran AL ATTAR**

حسان عباس بعيون معاصرة

إشراف وتقديم

فايز سارة

الإهداء

إلى سوريات وسوريين
قدموا الكثير من أجل مواطنيهم وبلدهم؛
إلى حسان عباس واحداً من هؤلاء
ماقمنا به اعتراف وتقدير لبعض ماقمت به.

المحتويات

المقدمة ________ 7

الفصل الأول

مقالات وشهادات[1]

بشارة حرية ________ فرج بيرقدار 15

حسّان عبّاس وربيع دمشق: القوّة الناعمة ____ وائل السواح 22

عن زمن استبداد ودم ورجل يسعى إلى ربيع ____ فايز سارة 35

حسان الذي أعرف ________ سمة عبدربه 46

حسان عباس: سورية – الحلم! ________ علي الكردي 52

مأثرة حسان عباس! ________ ميشيل كيلو 61

الدكتور أبو آرام ________ عمر الجباعي 69

رحلة قصيرة في مقالات حسان عباس ________ مزن مرشد 79

حسان عباس ونظرية الرأرأة ________ إبراهيم اليوسف 86

سورية حسان عباس الموسيقية ________ بدر الدين عرودكي 95

الفصل الثاني
من كتابات حسان عباس في الحال السوري

جدران الوهم ---------- 103
ثم يأتي «العبث» ---------- 107
مقاربتان بصريتان للنزوح السوري ---------- 112
حرّاس الذاكرة ---------- 117
تحوّلات في ثقافة الخوف ---------- 121
المجتمع المدني المقبل ---------- 126
صناعة التفاؤل ---------- 131
المدرسة السورية... الآن ---------- 135
المواطنة أمام امتحان الوباء ---------- 140
سوريا لا أمّ لها ---------- 147

الملحق الأول

مسارات حسان عباس في دروب الحياة ---------- 152

الملحق الثاني

روابط من نشاطات حسان عباس ومقابلات معه وكتاباته - 161
الهوامش والتعليقات ---------- 164

مقدمة

أما وقد اكتملت مواد كتاب: حسّان عباس بعيون معاصرة، وصار على أبواب الطباعة، فقد أصبحت كتابة المقدمة أمراً لابد منه. وللحق فإن روح هذا الكتاب، بطابعه التكريمي وبالمشاركين فيه الذين كتبوا مقالات، خصصت له، وتنشر فيه حصراً، يستحق أن تكتب له مقدمة مختلفة، مقدمة تتحدث عن الفكرة أولاً، فكرة هذا النوع من الكتب، قبل أن تتناول المثال أو تجسيدها العملي في الكتاب الذي صار بين أيدينا.

تعود فكرة الكتابة عن شخصيات في النخبة السورية عندي، ولاسيّما الثقافية منها إلى ما أحاط بالنخبة من تدمير وانتهاك وتهميش متعمد من جانب نظام البعث منذ استيلائه على السلطة عام 1963، وهو أمر تمت متابعته وتكريسه في عهد الأسدين الأب والابن اللذين أمعنا في عملية تهميش النخبة السورية وانتهاكها إلى حد التدمير، فيما ركزا من جانب آخر كل الأضواء على شخصيتيهما، وأحاطا نفسيهما بشخصيات، لا تملك من مواصفات النخبة وقدراتها إلاّ

القليل، لكنّها مشبعة بروح التزلف والتصفيق للدكتاتور وكيل المديح لجنون العظمة فيه، وكان وضع النخبة في المجال الثقافي والإعلامي بين أسوأ الأمثلة في تعبيرات ما أصاب النخبة، وكان الأشد وضوحاً في النماذج، التي تولت إدارة المؤسسات الثقافية والإعلامية وخاصة في اتحاد الكتاب العرب واتحاد الصحافيين والجامعات ومراكز الأبحاث والدراسات، وقد تحولت جميعها إلى مؤسسات وهيئات لا هدف لها سوى خدمة النظام، وتمجيد الدكتاتور فيه، والإشادة بما قام، ويقوم به حتى لو كان مصنفاً في عداد الارتكابات والجرائم المعلنة.

وكان ما حدث من جملة أسباب، أدّت إلى تدني اهتمام السوريين بالنخبة، وما تقوم به من دور في إنهاض المجتمع باعتباره وظيفة أساسية في مسار التنمية والتطوير في المجالات المختلفة، وأضيف إلى ما سبق، تدهور المكانة الاجتماعية والظروف المعاشية للمثقفين والأساتذة وبينهم أساتذة الجامعات، مما أدّى إلى تحول كثير من وجوه النخبة الحقيقية إلى أشخاص مجهولين، يعيشون ويموتون في الظل، وهو ما كان يطمح إليه، ويرغب به الأسد في التركيز على شخصه وصورته، ولم ينج إلا القليل من نخبة السوريين الذين غادروا إلى الخارج، وعاشوا وعملوا هناك، وأكثرهم أثبتوا وجودهم، وبرعوا في مجالات مختلفة، متجاوزين كل الصعوبات التي أحاطت بهم، أما الذين اختاروا البقاء في الداخل لسبب أو لآخر، فقد عملوا في الظل ووسط بيئة شديدة

الصعوبة، لا تقتصر على السيطرة الأمنية على الحياة العامة ونشاطاتها، وما تفرضه من تقييدات سياسية وإدارية على حركاتهم ونشاطاتهم، بل تتعداها إلى محدودية الإمكانيات، ومنافسة نخبة النظام ذات القدرات المتواضعة، التي لم تتورع عن استخدام كل ما يمكن للحفاظ على امتيازاتها ومكانتها ودورها المرسومين في إطار نظام السيطرة المفروض على سورية والسوريين.

وللحق، فإن تراجع النخبة السورية ودورها في الوسط الثقافي خصوصاً، بدا ظاهراً على مدى العقود الأخيرة من القرن الماضي، لكنه ومع نهوض السوريين في العشرينية الأولى من القرن الحادي والعشرين، وإطلاقهم «ربيع دمشق» بعد موت الأسد الأب، ومجيء الأسد الابن إلى السلطة عام 2000، مثّل خروجاً للنخبة الثقافية والاجتماعية والسياسية من تردي أوضاعها، ونهوضها إلى مهامها ودورها في المجتمع، ولو بصورة محدودة، لكن نظام الأسد الابن، استطاع توجيه ضربات متلاحقة لهذا التحول، الأمر الذي أعتقد أنه كان بين الأسباب، التي قادت السوريين إلى ثورتهم في ربيع العام 2011.

فجرت ثورة السوريين ضد نظام الأسد عام 2011 طاقات الشباب، وكشفت على نحو سريع عن نخبة سورية مخبأة، تملك معارف وأدوات وطاقات مبدعة، نقلت السوريين من وضع المستكين إلى وضع الثائر، ومن الساكت عن حقوقه إلى المطالب بها، بل نقلتهم إلى ساحة المواجهات

المدنية والسلمية الشاملة مع نظام، قرر أن يأخذهم إلى الأبعد نحو ساحات يجيد اللعب والصراع فيها، ومنها ساحتان هما الأهم: ساحة التسليح والعسكرة من جهة، وساحة الانقسامات ما قبل الوطنية من الدينية إلى الطائفية فالقومية.

لم تترك تطورات الصراع بين نظام الأسد وغالبية الشعب السوري الفرصة للحسم بأقل الخسائر، بل بإيقاع أكثره في صراع ما زال مفتوحاً نتيجة وحشية نظام الأسد وحلفائه، والتي انضمّت إليها لاحقاً وحشية جماعات التطرف والإرهاب والمليشيات الوافدة والمحلية من التلوينات الطائفية والقومية، والتي أصابت فيمن أصابت نخبة الشباب بشكل أساسي، فقتلت وجرحت، واعتقلت وشردت كثيرين، وبهذا لم تصبهم أجساداً فحسب، بل أخرجت أغلبهم من دائرة الصراع، وأغلقت بوابات نمو قدراتهم وتطورهم، وبهذا كانت خسارة السوريين مضاعفة في هذا الجانب.

يستحق هذا النسق من نخبة السوريين الشباب الجدد، أن نكتب عنهم، وأن نتناول خلفياتهم وتكويناتهم، وثقافاتهم ومعارفهم، وأن نتوقف عند تجاربهم بما شهدته من نجاحات وفشل، وأن ندقق في الدروس والخلاصات التي تركوها، والتي يمكن أن نستخلصها.

الشق الثاني الذي لا بدّ أن نكتب عنه من نخبة السوريين، هو تلك المجموعة التي رفضت الاستكانة لسياسات النظام وممارساته، وعملت قدر ما استطاعت، أن تقوم بما رأت أن

عليها القيام به، فجهدت وحاولت بكل الطرق والأساليب مستغلة كل ما أمكن من ظروف وطاقات لخلق وقائع جديدة، تتراكم باتجاه التغيير بجوانبه المختلفة.

إلى هذه المجموعة من النخبة السورية، ينتمي د. حسّان عباس الذي جهدنا في محتويات هذا الكتاب، أن نقدم صورة عنه في مساره الحياتي من تكوينه المعرفي إلى العملي، مروراً بنشاطاته المتعددة، وصولاً إلى ما يمثله من خلاصات في الجهد الذي قدمه خدمة لسورية وللسوريين على مدار ثلاثة عقود ونيّف، بدأت في المكان الرئيس لدراسته في باريس، وتصاعدت في دمشق المدينة التي اختار العودة إليها والعمل فيها، وتواصلت في بيروت، التي لجأ إليها بعد أن أصبح من المحال البقاء في دمشق، وصار من رابع المستحيلات، أن يتابع عمله فيها.

واستكمالاً لتكريم د.عباس، رأيت أن إعادة نشر بعض كتاباته في هذا الكتاب احتفال به، وتكريم له. إذ أننا نحتفي بأفكاره وآرائه في إطار إجمالي سيرته، وهكذا فإن تزيين الكتاب ببعض ما كتبه من مقالات، يقع في دائرة جهدنا، آملاً أني اخترت نصوصاً، قاربت أو طرحت الأهم في آرائه ومواقفه.

لن أذهب في هذه المقدمة إلى الأبعد في الكلام عن محتويات الكتاب، لأنني لا أريد أن أصادر، أو أن أشرح أو ألخص شيئاً، مما كتبته الصديقات، وأكمل فيه الأصدقاء ممن

تفضلوا مشكورات ومشكورين كتابة ما احتواه من مقالات، كان لهم وحدهم حق اختيار عناوينها ومحتوياتها، وعكسوا في مشاركاتهم، ليس فقط حبهم للصديق حسّان، وهو يستحق كل المحبة، بل وعيهم بدوره الهام.

أود أن أكرر شكري لكل من كتب سواء؛ نشرت مساهمته، أم لم تنشر لأسباب تقنية، كما أشكر كل من شاركنا الفكرة أثناء النقاش معه، وأشكر كل من قدم لهذا المشروع اقتراحات أو توصيات أو ملاحظات، كانت لها جميعاً آثار إيجابية على الصيغة الأخيرة، التي ظهر بها هذا الكتاب.

أحب أن أشكر بشكل خاص، الصديق العزيز فوزات رزق الذي قام مشكوراً بتدقيق نص محتويات الكتاب تجنباً لما كان موجوداً من أخطاء. كما أشكر أيضاً صديقات وأصدقاء قدموا لنا صوراً للصديق حسان، ساعدت في رسم تصورات فنية تتعلق بالكتاب وغلافه على نحو خاص.

ولا أنسى شكر الأعزاء الذين تفاعلوا بصورة سريعة وعملية على صفحتي في فيسبوك، للقيام بجهد في تصميم غلاف الكتاب وإخراج صفحاته، ومتابعة إصداره في نسخته الإلكترونية، أو في نسخته الورقية المنتظرة الصدور، وأن أخص منهم عمران العطار الذي تحمل مختاراً ومتحمساً العبء الرئيس في هذا الجهد.

وفي النهاية أرغب في القول: إن هذه التجربة بما كان فيها من سلبيات وإيجابيات، هي مسؤوليتي الشخصية من

فكرتها إلى فصولها، وصولاً إلى نتائجها، وإني سأدقق في مجرياتها ونتائجها، لأرى إذا كنت سأكررها. ولئن توقفت عن ذلك لسبب أو لآخر، فإني لأطمح أن أشخاصاً وبخاصة من الشباب، سيتابعون فصولاً جديدة في هذه التجربة لأهميتها ليس لسورية والسوريين فحسب، وإنما أيضاً للسوريين الطموحين لخدمة بلدهم وأهلهم وأنفسهم.

لندن
تشرين الثاني 2020
فايز سارة

الفصل الأول

مقالات وشهادات

بشارة حرية

فرج بيرقدار
شاعر سوري/ مواطن سويدي

في أيار 1992 أيقظ نظام الأسد محكمة أمن الدولة العليا من سُباتها الذي دام سنوات، وعلى ذلك استيقظ وضع مجموعتنا، وقررت السلطات نقلنا من تلك المملكة المرعبة والمجنونة، أعني مملكة سجن تدمر الرابضة على تخوم الصحراء، والتي كانت في ما مضى واحات وارفة ترعاها وتحرسها جدتنا الملكة زنوبيا.

في الواقع كان بعضنا يعتقد أن وجودنا في سجن تدمر هو مشروع تصفية متمهِّلة وبالتالي طويلة الأمد، ولكن فجأة أخرجونا من المهجع ونقلونا إلى إحدى الساحات، حيث أعادوا تسجيل تفاصيل قيودنا من اسم وكنية وتاريخ ومكان ميلاد بالإضافة إلى اسم الأب والأم إلخ.

أتذكّر أن أحد رفاقنا نسي اسم أمه، وأن المساعد الذي يشرف على تسجيل قيودنا قرَّعه بشدة: هل يُعقَل أن ينسى أحد اسم أمه؟

كأن المساعد لا يعرف ما يكتنف هذا السجن من جمر

ورماد، يمكن أن ينسى معهما السجين أمه وحليبها وأهله وماضيه وحتى مستقبله.

بعدها ساقونا إلى سيارة عسكرية ذات صندوق مغلق راحت تطارد الطريق لساعات إلى أن وصلنا إلى سجن صيدنايا القريب من دمشق.

بعد أيام على وصولنا إلى صيدنايا، بدؤوا بأخذنا إلى محكمة أمن الدولة العليا في دمشق على دفعات، تضم كل واحدة منها حوالي دزينة. طريقة سوقنا إلى المحكمة وأيدينا المغلولة إلى جنزير طويل كان يستحضر في ذهني ما قرأتُه من سِيَرة عبيد روما ومجرياتها.

كان مضى على مجموعتنا سنوات ونحن في انقطاع تام عن العالم الخارجي، فلا زيارات ولا أخبار ولا آفاق يستريح البصر عليها.

بعد عدة جلسات سمحت المحكمة بلقاءات مباشرة بيننا وبين المحامين الذين غامروا، وتطوعوا للدفاع عنا.

اقترب المحامي منير العبدالله من قفص المحكمة الذي نحن فيه، وسأل: من من بينكم فرج بيرقدار؟

أخيراً هناك من يسأل عني من خارج أجهزة المخابرات وإدارة السجن.

اقترب مني ليقول: سأخبرك بأمرين. الأول أن مرافعتك

انتشرت في الخارج على نطاق واسع، والثاني أمانة من الدكتور حسان عباس بأن أنقل لك سلامه. سألته إن كان الدكتور حسان عباس، يعرفني شخصياً، ولكنه قال: لاحقاً نتحدث، فرئيس المحكمة، يطلب إخلاء القاعة الآن.

لي أصدقاء كثيرون كنيتهم «عباس»، غير أني لا أعرف أحداً منهم باسم حسان، ولكن رغم عدم معرفتي به، بل ربما بسبب عدم معرفتي، فقد كان سلامه نوعاً من التواصل مع العالم الخارجي وأشبه ببشارة حرية. نعم هي بشارة خروجي من ذلك الموت المعنوي. أن تكون مقطوعاً لسنوات عن العالم الخارجي هو موت معنوي. أن تكون منسياً هو موت معنوي. أما أن يصلك سلام من شخص، يهتم بأمرك وأنت لا تعرفه، فذلك والله ينشر في النفس عرساً من الأجنحة، ويعوِّض عن أولئك الكُتّاب والمثقفين الذين باتوا يخشون من أي ذكر لعلاقتهم بي.

لاحقاً عرفت الكثير عن حسان عباس، ورسمت أحلاماً وأمنيات في أن ألتقيه، إذا بقيت حياً، وخرجت من السجن. لم يطل الانتظار كثيراً، فبعد ثماني سنوات من وصول سلامهِ إليَّ أُطلِق سراحي، وتواصل معي حسان ليدعوني إلى أمسية شعرية في المعهد الفرنسي للدراسات العربية، حيث كان أستاذاً فيه بعد أن رفضت جامعة دمشق تعيينه فيها.

رجوته أن يغض النظر عن الأمسية، فأنا لا أريد أن أورثه وجع رأس مع أجهزة المخابرات، وحين أبدى إصراره،

حدَّثته عن قناعتي في أن السلطات المعنية، لن تعطي الموافقة على أمسية شعرية، تتضمن اسمي، وبالتالي فإنه يغامر في أمر يعرِّضه للمتاعب ولا سبيل إلى تحقيقه. قال لي: لا عليك، فنشاطاتنا في المعهد لا تقتضي موافقة السلطات.

– حتى لو.. هو أمر سيُسجَّل عليك.

لم يكترث حسان لما قلت، ولكنه أبلغني أن القاعة صغيرة، وأنه لن يبلغ بالأمسية سوى طلبة المعهد وبعض الأصدقاء المقرَّبين.

مع ذلك ورغم كل الاحتياطات. فإن القاعة لم تستوعب أعداد من حضروا.

قال لي: لا عليك.. لدينا كراسيّ إضافية، ويمكن لأصدقاء المعهد أن يقفوا في الغرف القريبة من القاعة.

هكذا سقط السجن، وانتصبت الحرية في القاعة والغرف المجاورة.

قدمني حسان على نحو اقتضى مني الكثير من الضبط لكي لا تغدر بي دموعي.

كان يتحدث للجمهور عن عودتي من البعيد البعيد. كان كمن يقول ها أنذا أعلن عن إطلاق سراح روحك وشِعرك وأحاسيسك، وليس جسدك فقط.

كان سلامه وأنا في السجن بشارة حرية لي، وها هو الآن

يتوجّني أمام الملأ بمعنى الحرية العميق والمتسامي. كان يهمه أن يعرّفني إلى أكبر عدد ممكن من العاملين في المعهد. هل كان حسان يدرك أن من يمضون سنوات طويلة في السجن، يصبحون أكثر حاجة للتواصل مع الآخرين، لعلهم يستعيدون أنفسهم، أو يعيدون تأهيل ما أحرقته سنوات السجن في قيعانهم الداخلية العميقة؟

حسان عباس أحد الرموز الذين عبروا كل ما أحاط بالسوريين من حواجز ومراصد وأجهزة رقابة وقمع ومصادرة، إلى أن احتلَّ مكانه وصار واقعاً يصعب إلغاؤه كما يصعب تجاهله، وأيضاً يصعب وضعه عند حدوده، التي تحاول السلطات فرضها كلما وأينما استطاعت.

كان حسان، وما زال يشتغل على التأسيس وعلى الأسس بالمعنى المعرفي الثقافي والحقوقي والنقدي والمسرحي والغنائي والتراثي.

لم يغرق في التفاصيل، ولم يستطع أحد إغراءه بها أو إغراقه فيها.

ثقافته الموسوعية مأثرة تليق بحاملها، ولكن المأثرة الأهم هي المصداقية في جمعه بين القول والفعل على نحو بالغ الاتساق والخصوبة، ولذلك لم يتردد في انحيازه الواضح لمطالب السوريين منذ بداية الثورة، كما في نقده للازدلافات والمنزلقات والكوارث التي استطاع النظام بقمعه الوحشي

أساساً، وتكالب المصالح والأجندات الإقليمية والعالمية تالياً، جرّ الثورة إليها من عسكرة وتطييف وشرذمة وتبعية.

حين أتابع ما قام ويقوم به حسان، أشعر أنه ليس فرداً بل ورشة عمل في منتهى التفاعل والنشاط والأمل.

هو باختصار، كما عرفتُه وكما عرّف نفسه في المقابلة التي أجراها معه مركز حرمون للدراسات المعاصرة، (رجلٌ من دون أن يصبح ذكوريًا، وعربي من دون أن يصبح عنصريًا، وعلوي من دون أن يصبح طائفيًا). وأضيف أنه جدير بالعلوّ بقدر تواضعه ونفوره من التعالي.

الدكتور حسان عباس.. هي مناسبة أتوسّل بها الآن لأعلن لك، وأمام الجميع، الكثير الكثير من الشكر والامتنان والمحبة على ما قمت، وتقوم به من أجل الإنسان عموماً، ومن أجل شعبنا خصوصاً.

أشعر بالسعادة والإنصاف والفخر حين أتذكّر أن فرنسا منحتك وسام «السعفة الأكاديمية برتبة فارس» عام 2001، فأنت جدير بذلك وأكثر، وأشعر بالحزن والألم والمرارة حين أتذكّر أن حاضرنا السوري لم ينصفك واقعياً، وإن كان أنصفك وجدانياً لدى من يتقنون قراءة الأصول والأعماق ومكامن المجد والتضحيات، حيث لم تدّخر جهداً ولا حباً ولا عطاءً، ولكني على أمل أنَّ المستقبل، وإن تأخَّر، سينصف ويكرِّم مؤسسيه من أمثالك.

حسّان عبّاس وربيع دمشق
القوّة الناعمة

وائل السوّاح
كاتب سوري

في مطلع الألفية مات الدكتاتور. كما قال رياض الترك، مخلّفاً وراءه شخصاً ضعيفاً، أراد أن يثبت أنه قويّ، فقضى على حراك كان بإمكانه، أن ينقل سوريا سلمياً إلى بلد تشاركي ديمقراطي مدني، دون أن تضطر على المرور بحمام الدم الذي مرّت فيه. إنه ربيع دمشق الموؤود.

وثار جدل متواصل بين النظام السوري ونقّاده حول قضية جديدة على السوريين: المجتمع المدني، وهو ما كان في واقع الحال تجلياً للخلاف المتأصل بينهما حول فكرة الإصلاح. وفي تلك السنوات كان مفهوم المجتمع المدني، لا يزال جديدا بالنسبة للسوريين، حيث أن فترة 45 سنة من حكم بلون سياسي وحزبي وإيديولوجي واحد، ومع غياب أي شكل من أشكال العمل الأهلي الطوعي ومع حظر كلي لأي نشاط سياسي مستقل عن الحكومة، ناهيك عن القمع المستمر الذي فرضه قانون الأحكام العرفية، فقد أدت جميعاً إلى حرمان سورية من أي نشاط مدني. و كانت النتيجة أن الحياة العامة (والخاصة) في سورية، ارتبطت بشكل كامل

بالحكومة، واعتمدت عليها، وكان يهيمن عليها حزب سياسي واحد.

وقبل العام 2000ـ كانت الطريقة الوحيدة لمعارضة الحكومة هي العمل تحت الأرض في مجموعات سياسية سرية صغيرة. لكن العمل السري كان من شأنه خلق الكثير من المشاكل التي أدت إلى تراجع وتضاؤل الحياة السياسية في البلاد، وخصوصاً بالنسبة للناشطين السياسيين الذين دفعوا حياتهم أو جزءاً كبيراً من حياتهم ثمنا لنشاطهم السياسي. وكانت مرحلة الثمانينات من القرن الماضي، أصعب المراحل على السوريين بشكل عام وأشدها حلكة، وتبدل الأمر قليلاً مطلع التسعينات، إذ جلب معه تغييراً طفيفاً كان مقدمة لتغييرات، مهما بدت بسيطة فإنها لعبت دوراً تراكمياً في بناء مفهوم المجتمع المدني. وبدأت حفنة من المثقفين السوريين الشجعان، تتلمس طريقها للبحث في مسألة جديدة كلياً في ذلك الوقت، هي المجتمع المدني.

في مطلع التسعينات، عاد إلى سوريا من باريس رجل في الثلاثينات، بشاربين أسودين كثّين، وشعر خفيف على الرأس ونظارتين مستديرتين، بعد إحدى عشرة سنة هناك، وعاد يحمل شهادة دكتوراه في النقد الأدبي. لكن ما ميّزه، إنما حمله لرسالة التنوير الفرنسية بعقلانيتها وبعدها الإنساني ممزوجة بالمبادئ العليا للإنسانية والعدالة الاجتماعية.

وبدا حسّان للنظام عدواً مبيناً. كان حافظ الأسد قد

خرج للتوّ من عزلة مقيتة، امتدت سنوات، وشارك في مؤتمر مدريد، وأفرج عن بعض المعتقلين الذين أمضوا سنوات طويلة في سجونه، ولكنه لم يكن مهيأ لقبول أفكار المواطنة والحريات. ولذلك فشل حسّان في العثور على وظيفة أستاذ في جامعة دمشق، بقرار من وزير التعليم العالي وقتها هاني مرتضى، الذي كان يحابي قراراً أمنياً وحزبياً بعدم السماح لحسان بالتدريس في الجامعة، ولعلّ في الرفض خيراً. فقد عمل حسّان في المعهد الفرنسي للدراسات العربية، وأدار منه حراكا ثقافياً متميّزاً في مرحلة التسعينات وما تلاها، تمركز في دمشق، وامتد إلى أنحاء سورية أخرى.

مع السينمائيين والمثقفين

كان من أول نشاطات حسان عباس تفاعله مع حراك مدني هام حدث قبيل وفاة الأسد الأب عام 2000، حين استغلّت حفنة من رفاقه السينمائيين والمثقفين المهتمّين بالسينما حالة الفساد داخل المؤسّسة العامة للسينما، وهي هيئة حكومية تحتكر إنتاج الأفلام السينمائية واستيرادها وتوزيعها في البلاد، فأصدرت أول بيان مدني مستقلّ مطالب بالإصلاح من خارج الأطر البعثية والحكومية. وعملت هذه المجموعة من العاملين في المؤسسة من مخرجين وكتاب سيناريو وعاملين في المونتاج وغيرها من مراحل الإنتاج على إصدار بيان نبّه من أن المؤسسة تنهار تحت ضغط التخطيط السيئ والقوانين الإدارية والمالية القاصرة وبسبب الفساد المنتشر في إدارتها. وقاموا بحملةِ مطالبةٍ لوقف تدخل

السلطة (السياسي) في عمل المؤسسة (الثقافي)، وبلغت الحملة أوجها، عندما أصدر السينمائيون بياناً، يعبرون فيه بجرأة عن مطالبهم.

وكي لا يتمّ الاستفراد بالسينمائيين، بادر حسان إلى متابعة نشاط زملائه بدعم من خارج المؤسسة، فكتب بياناً أطلق عليه اسم «بيان المثقفين لدعم السينمائيين»، وجمع عليه بعض الأسماء المهمة. وأرسل الموقعون البيان إلى جريدة الثورة، التي لم تنشره طبعاً، ولكنه نشر في جريدة النهار اللبنانية. ولإدراك أهمية هذه الخطوة، يكفي القول، أن هذا البيان هو الرابع منذ أن تسلّم حافظ الأسد مقاليد الأمور في سوريا بانقلابه في تشرين الثاني 1970. كان الأول بيان المثقفين ضدّ دخول الجيش السوري إلى لبنان عام 1976، والثاني بيان المثقفين ضد مشاركة قوات سورية في القوات متعددة الجنسيات 1991، والثالث هو بيان السينمائيين السوريين 1999، والرابع كان بيان المثقفين الداعم للسينمائيين2000.

بيان الـ 99 وما تلاه

كان بيان الـ 99 حجر الأساس في حركة المجتمع المدني السوري المعاصرة، وقد صدر في 27 أيلول عام 2000 حاملاً مطالب إصلاحية ذات أهمية كبرى بعد وقت قصير من وفاة حافظ الأسد، ووقعه تسعة وتسعون مثقفاً سورياً، فتحوا الطريق أمام مثقفين وسياسيين آخرين للمضي على طريق عمل علني، من خلال توقيعهم ما سوف يعرف

في التاريخ السوري المعاصر باسم «بيان التسعة والتسعين». وكان بين الموقعين مفكرين وأكاديميين وكتاباً وأساتذة جامعات، لكن بعضهم الآخر كان سياسياً من أحزاب سياسية معارضة، وهو ربما ما أعطى البيان الشهير صبغة سياسية أكثر منها مدنية. ومع ذلك فقد كان هذا البيان الشرارة التي أشعلت الحريق. كان حسّان أحد الذين اشتغلوا في تفاصيل البيان وبينها جمع التوقيعات، في زمن لم يكن الإنترنت قد وجد في سوريا بعد، فكان عليه الانتقال من مقهى لمقهى ومن بيت لبيت ومن محافظة إلى محافظة ليضيف توقيع هذا الكاتب أو ذاك المخرج. وفي حوار مطوّل بين حسّان وبيني في شهر أيار 2008، قال لي إن السلطة، أُخذت بالبيان على حين غرّة، ولم تجدْ بدّا من التسامح معه، ما أدّى إلى نوع من الانفتاح والحرية وقلّل من خوف الناس، وتساءل لماذا لم تفعل السلطة شيئاً. فهي إما كانت ذكية ولديها نوايا جيدة في مساعدة المجتمع المدني في تنشيط حيزه الثقافي، أو أنها كانت تعتبره لعب أولاد.

على أن البيان لم يكن لعب أولاد. فلأول مرة منذ عقود، يجتمع مثل هذا العدد من النخبة السورية على المطالبة بإلغاء حالة الطوارئ، وإصدار عفو عام عن جميع المعتقلين السياسيين ومعتقلي الرأي والضمير والملاحقين لأسباب سياسية، والسماح بعودة المشردين والمنفيين السياسيين جميعاً، وإرساء دولة القانون، وإطلاق الحريات العامة، والاعتراف بالتعددية السياسية والفكرية، وحرية الاجتماع

والصحافة والتعبير عن الرأي، وتحرير الحياة العامة من القوانين والقيود وأشكال الرقابة المفروضة عليها.

وقد وقع البيان نخبة من ألمع المثقفين بينهم والد حسّان عبد الهادي عباس وعبد المعين الملوحي وأنطون مقدسي وبرهان غليون وصادق جلال العظم وميشيل كيلو وطيب تيزيني وأدونيس وعمر أميرالاي ونائلة الأطرش وحيدر حيدر ونزيه أبو عفش وعبد الرزاق عيد وجاد عبد الكريم جباعي وفارس الحلو وحسان عباس وحنان قصاب حسن وجوزيف لحام وعطية مسوح وواحة الراهب ونوال اليازجي ومحمد قارصلي وسوسن زكزك وشوقي بغدادي وفايز سارة ومحمد سيد رصاص وأنور البني وخليل معتوق وعلي الجندي ومحمد كامل الخطيب وممدوح عدوان ومحمد ملص، وغيرهم.

لقد أسّس الجهد الذي بذله حسّان ورفاقه على سلسلة من الأعمال الفردية الجريئة، التي ظهرت للوجود في ذلك الوقت، ومن أهمها كلمة بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس أغناطيوس الرابع هزيم في حفل الأربعين التأبيني للرئيس الراحل حافظ الأسد، وماكتبه الزعيم السياسي المخضرم رياض الترك في ملحق «النهار» في مقالته المعنونة: «من غير الممكن أن تظل سوريا مملكة الصمت» (تمّوز 2000)، والخطاب المفتوح الذي نشره المفكر أنطون مقدسي في (آب 2000) في جريدة الحياة، وكان نهاية في الجرأة والصراحة.

وأسّس أيضاً على نشاط هادئ وطويل، تمّ من خلال ندوة الثلاثاء الاقتصادية، التي لعب فيها الدكتور عارف دليلة بشكل خاص في تعريف الجمهور السوري بأسلوب ذكي خفايا الأمور المتعلّقة بالتنمية والقطّاع العام والضرائب والبطالة وغيرها.

تلا بيان الـ 99 بيان آخر أطلق عليه اسم بيان الألف، وكان أوسع وأشمل من بيان الـ 99. وقد أكد البيان، أن سورية اليوم «في حاجة إلى جهود الجميع لإحياء المجتمع المدني الذي حرم ضعفه وإضعافه، في العقود الماضية، عملية النمو والبناء من قدرات وفاعليات وطنية مهمة وجدت نفسها مجبرة على الابتعاد عن الممارسة الإيجابية». وانتقد البيان بقوة «تماهي السلطة والدولة، وتماهي الشخص والمنصب الذي يشغله، وصبغ الدولة بصبغة الحزب الواحد واللون الواحد والرأي الواحد، وجعلها دولة جزء من المجتمع، لا يعترف بجزئيته (في إشارة إلى حزب البعث الحاكم)، بل يقدم نفسه ممثلا للشعب وقائدا للدولة والمجتمع يخفض المواطنة إلى مستوى الحزبية الضيقة والولاء الشخصي، وينظر إلى بقية المواطنين على أنهم مجرد رعايا».

واختتم البيان بالمطالبة بتحقيق جملة من المطالب بينها وقف العمل بقانون الطوارئ، وإلغاء الأحكام العرفية، وإطلاق الحريات السياسية، ولاسيما حرية الرأي والتعبير، وإصدار قانون انتخاب ديمقراطي لتنظيم الانتخابات في جميع المستويات، واستقلال القضاء وضمان نزاهته وبسط سيادة القانون، وإلغاء أي تمييز ضد المرأة أمام القانون.

وعلى الضدّ من البيان السابق، ردّ النظام بعنف على بيان الألف، ويبدو أن السلطة بدأت تتنبه لحساسية هذا الموضوع.

المنتديات الثقافية

كانت الصورة تبدو في العام 2000 و2001 كمسبحة قطع خيطها ففرطت حباتها، وبدت دمشق والمدن السورية الأخرى، وحتى القرى والبلدات، كخلايا النحل النشيطة. وبدأت الصالونات والمنتديات الثقافية والسياسية، تفتح أبوابها للنقاش العام حول قضايا الحياة المدنية والمجتمع المدني في سورية. ومن بين هذه المنتديات، برزت أسماء «منتدى الحوار الوطني»، «منتدى الحوار الثقافي»، «منتدى جمال الأتاسي»، و«المنتدى الحضاري» على سبيل المثال لا الحصر.

وقد يكون أهم المنتديات السياسية والثقافية التي ظهرت في تلك الفترة صوتا كان «منتدى الحوار الوطني»، الذي كان الشرارة الأولى التي أطلقت الربيع، ثم مع إغلاقه في شباط/ فبراير 2001 وتحويل المسؤول الأول عنه النائب رياض سيف للتحقيق معه بعد رفع الحصانة الجزئية عنه، كانت بداية النهاية لربيع دمشق.

ولكن هذا المنتدى لم يكن الأول. فقبل وفاة الأسد الكبير، أسّس حسّان عبّاس والرائدة النسوية اليسارية نوال يازجي منتدياً سبق المنتديات كلّها، وكان رسولاً لربيع دمشق.

كان حسّان يعتقد أن الأساس في العمل في تلك الفترة، يكمن في بناء فكرة المواطنة وإعادة بناء المجتمع المدني باعتباره حجر الأساس لبناء الديمقراطية، فلا ديمقراطية بدون مبدأ المواطنة وبدون مجتمع مدني، يراقب عمل الحكومات والأحزاب والسياسيين، ويصوّب أخطاءهم إن وقعت.

بدأ حسان يفكر في عمل ثقافي محلي في المنطقة، التي يسكن فيها، منذ أن عاد إلى دمشق عام 1993 من باريس. وكان ثمة محاولات عدة، باءت جميعها بالفشل بسبب صعوبة تأمين المكان المناسب لعقد اجتماعات المنتدين. وكان على الجميع انتظار من يوفر المكان، وهو مافعلته الناشطة البارزة السيدة نوال اليازجي التي فتحت بيتها للمنتدى في عام 1999. وبذلك يمكن القول، إن منتدى الحوار الثقافي، كان أول منتدى ظهر، سابقا بذلك حركة ربيع دمشق. وخلال أقل من سنة كان لدى القائمين على المنتدى نحواً من أربعمائة اسم مشارك. وركز المنتدى على المناحي الثقافية ذات البعد العام. وبرز من بين المحاور التي قدمت في المنتدى محور «الثقافة والضمير في سورية» ولعل تنظيم إدارة الجلسات كان أكثر تميزاً من باقي المنتديات، حيث أتيح للمحاضر وقت محدد، يتلوه وقت لعدد محدد من المتخصصين بموضوع المحاضرة، يقدمون فيه تعقيباتهم عليه، قبل أن يفتح الباب للنقاش العام.

وبرأي حسان أن هذه الطريقة ساعدت في إزالة الخوف من النقاش واحترام الرأي الأخر. وقد ظل المنتدى يعمل

قرابة الأربع سنوات عندما اضطر إلى إغلاق أبوابه، بسبب الضغوطات الأمنية التي طالت كافة المنتديات. وخلال هذه السنوات كان حسان، كما تقول صديقته وشريكته نوال، يهتمّ بكل شيء من استئجار الكراسي أو استعارتها من الجيران وصفّها إلى التنظيف بعد الجلسات، مرورا بجدول الأعمال وإدارة الجلسات والبحث عن المتحدّثين والبحث في المواضيع المطروحة، وتنوّعها وغناها وضرورتها.

لقد كان المنتدى الثقافي «وظاهرة المنتديات عموما» مرشّحة لأن تلعب دوراً في تفعيل المجتمع من خلال تكريس بعض حقوق المواطنة كالحق في التجمع، والحق في الإعلام والاستعلام، والحق في التعبير، والحق في المشاركة، وكذلك من خلال تخليص الناس من ثقافة الخوف بما يعنيه ذلك من إعادة الحياة إلى المجتمع المدني. لكن إنهاء هذا الدور من قبل الحكومة السورية، وأد هذه الفرصة، فانتهى هذا الدور، ولكن نهاية المنتديات لم تحبط عزيمة المثقفين، فبدأت مجموعات وأفراد منهم، كان بينهم عدد مهم من الشباب باتخاذ مبادرات هامشية، أي بعيدة عن الأطر المؤسساتية المحددة من قبل السلطة. وكان معظم هذه المبادرات ذات هدف ثقافي صرف، فكانت الثقافة منطلق المبادرات وغايتها أيضا، دون أن تتطلع إلى فعل أو إلى هدف سياسي لكنها في شكل تكوينها وفي آلية عملها تطلق قيما ثقافية جديدة تعتمد على المبادرة الفردية وترفض وصاية المؤسسات. نجد أمثلة على هذه المبادرات لدى الشباب بشكل خاص.

وفي كلّ من تلك النشاطات، كان أثر حسّان عباس بارزا، كمؤسس أو مشارك أو داعم أو ناقد. وفي معظم الحالات، كانت الثقافة هي منطلق المبادرات هي هدفها أيضاً. فهذه المبادرات لا تتطلع إلى فعل أو إلى هدف سياسي لكنها في شكل تكوينها وفي آلية عملها تطلق قيما ثقافية جديدة تعتمد على المبادرة الفردية وترفض وصاية المؤسسات. وكما يرى حسّان نفسه فإن هذه المبادرات ظهرت بشكل خاص في أوساط الشباب، وكان من الممكن أن تتحوّل هذه المبادرات إلى حركة ثقافية شاملة تغيّر المشهد الثقافي ككلّ. في المسرح، ظهرت أولى التجارب المسرحية المنفلتة من أسر الإدارات الحكومية في نهاية التسعينيات، وهي فرقة «الرصيف» التي ضمت المخرجة السورية الشابة رولا فتال والمؤلف المسرحي التونسي المقيم في سورية حكيم مرزوقي. غير أن العقبات التي وضعتها المؤسسة الرسمية أمام عمل هذه الفرقة أعاق استمراريتها بشكل مستقل، وأوقف تطورها. وفي عام 1999 وبمبادرة من مسرحية شابة هي نورا مراد تشكلت فرقة «ليش». وبموازاة ذلك أطلقت المسرحية الشابة مي سكاف مشروع «تياترو» لدعم المشاريع المسرحية الخاصة. وهو عبارة عن مكان مؤهل للتمرين على العرض تستفيد منه الفرق الخاصة، كما تقام فيه دورات تأهيل للراغبين في تعلم الفنون المسرحية وكذلك دورات لتعليم فنون الرقص للكبار والصغار.

وفي السينما، يمكننا أن نتتبع الحراك الثقافي في مجال

السينما على مستويين: مستوى الصناعة السينمائية ومستوى المشاهدة أو التلقي. على مستوى الصناعة السينمائية تكاثرت التجارب الفنية الفردية وبخاصة في مجال الأفلام القصيرة التي لا يتطلب تصويرها إمكانات ضخمة. ويمكن أن نذكر في هذا السياق عددا من المحاولات التي لاقى بعضها نجاحا حقيقيا في شبكات المشاهدة الخاصة، من مثل فيلم «ابن العم» لمحمد علي الأتاسي عن شخصية السياسي المخضرم رياض الترك. وكان حسّان أحد قلّة ممن أعطوا السينما اهتمامهم وتقديرهم في زمن بدأت فيه دور العرض تختفي من البلاد. وفي عام 2001، قام حسّان بمساعدة بعض الشباب الجامعيين بإطلاق ناد للسينما اجتمع أكثر من أربعين مرة، وقد تنقلت العروض بين عدد من البيوت قبل أن يقدّم أحد الأصدقاء كراج بيته مكاناً دائماً للعرض، لكن سرعان ما تنبهت الأجهزة الأمنية إلى ذلك، فضغطت على صاحب البيت حتى اضطرته للاعتذار واسترجاع المقر.

وكما قال حسّان ذات مرّة في حوار لي معه: إن للفعل الثقافي في سورية المعاصرة «دورا كبيرا جدا في تغيير الثوابت الاجتماعية التي أرستها سياسة حزب البعث، وبالتالي في خلق مجتمع جديد متحرر من هيمنة الرأي الواحد، ومن ضغط المؤسسة الحكومية. مجتمع مسؤول، يعتمد على نفسه، يحترم التعددية، ويتحرر من ثقافة الخوف. ومجتمع كهذا يستطيع أن يشكل أرضية مناسبة لبناء الديمقراطية».

عن زمن استبداد ودم
ورجل يسعى إلى ربيع

فايز سارة
كاتب وسياسي سوري

«الوضع الذي وصلنا إليه اليوم وضع محزن، ولا أريد أن أرش فوق الموت سكراً، نحن نفقد أصدقاءنا وبيتنا وأرضنا، وشبابنا يفقدون مستقبلهم، والأقل شباباً يفقدون تاريخهم. أنا كشخص حين أجد أن كل شيء، يدفع للتشاؤم، أسأل نفسي ما معنى وجودي في الحياة، إذا كنت أرى كل الأشياء سوداء، فالأفضل أن أموت، ولكن لا أريد أن أموت. لذا لابد من بناء الأمل. التشاؤم برأيي أمر طبيعي، ولكن التفاؤل أمر إرادي، ورغم تشاؤمي قليلاً، إلا أنني مواطن يصنع التفاؤل»

حسان عباس في حوار معه

ولد حسان عباس في ربيع العام 1955، وعندما بدأ وعيه يتفتح على الحياة، قفز عسكريو حزب البعث وبعض حلفائهم من المغامرين للاستيلاء على السلطة في سوريا عبر انقلاب عسكري في آذار عام 1963، وبعد ذلك بثلاثة أعوام قاد عسكريون من البعث إضافة إالى مليشيا تتبع الحزب اسمها الحرس القومي، انقلاباً جديداً على رفاقهم وقادتهم في الحزب والدولة، ثم قام حافظ الاسد أحد الذين تسلقوا

على السلطة في انقلاب شباط 1966 بقيادة انقلاب على رفاقه في قيادة الحزب والدولة في تشرين الثاني 1970، وزج أبرزهم في السجن، وأبقاهم فيه أكثر من عشرين عاماً دون محاكمة، ودون أن يكلف نفسه تقديم مبرر سواء لاعتقالهم أو لبقائهم كل هذه المدة الطويلة في سجن المزة العسكري الذي كان اسمه يثير الرعب في قلوب السوريين.

وسط الزمن الممتد ما بين الولادة عام 1955، مروراً باستيلاء البعث على السلطة 1963 وقفزة حافظ الاسد إلى حكم سوريا عام 1970، أمضى حسّان عباس طفولته متنقلا بين مصياف مدينة الولادة ودمشق، قبل أن يستقر في دمشق يافعاً وشاباً ليتابع تعليمه برعاية عائلة مميزة، حيث الأب محام معروف والأم سيدة نذرت نفسها لخدمة أسرتها الصغيرة، المحسوبة في نخبة المجتمع الذي بدأ ينتقل في العهد البعثي من طابعه المدني، ليصير تحت سيطرة العسكر، ومن واقع النظام الليبرالي والتعددي إلى نظام سيطرة الحزب الواحد، ومن دولة المؤسسات والقانون إلى حكم الأجهزة العسكرية والأمنية، ومن التعليم المفتوح على الحياة والمعرفة إلى التعليم المقيد بألف قيد وقيد، لعل الأبرز في مؤشرات تغييره، اختفاء حصص الرسم والموسيقى والخط من مناهج التعليم، وإطلاق المنظمات الفاشية للعمل وسط التلاميذ والطلاب من المرحلة الابتدائية، حيث تكرس فيها وجود طلائع البعث، فيما جرى إطلاق شبيبة الثورة بالتشارك مع حزب البعث للعبث بطلاب المراحل الأعلى، وصولاً إلى

الجامعة، التي تغلغل في أوساط طلابها وكادرها التعليمي والإداري حزب البعث ورديفه النقابي اتحاد الطلبة، وكلاهما لم يكن أكثر من قناة لسيطرة المخابرات على الجامعات السورية بطلابها وأساتذتها وموظفيها أيضاً.

لم تكن التغييرات السابقة، سوى مؤشرات عن تحول بالإكراه، دخلت سوريا سردابه. كان عهداً يذهب بكل ما فيه من حقوق وحريات وانفتاح ونمو، وآخر يحل مكانه شيئاً فشيئاً، عبر الاستخدام الفج الواسع والعنيف للمؤسسة العسكرية – الأمنية، التي دبرت في عقد الستينات، وقادت عشرات الانقلابات نجح قليلها، وفشل الكثير منها، بصورة استنزفت طاقة المؤسسة الأكثر تنظيماً وقدرات في البلد، فدفعت أعداداً كبيرة من ضباط الجيش إلى خارجه، وأضعفت قوة الجيش مما سهل السيطرة عليه، وتحويله من جيش وطني إلى جيش عقائدي، صار أداة في الصراع على السلطة داخل النظام، وأداة في صراع النظام مع الشعب، وسجلت سنوات السبعينات فصولاً من استخدام الأسد للجيش والمخابرات في قمع الحركة الشعبية، واجتياح مدن وقرى، وقتل عشرات الآلاف من السوريين في مذابح جماعية، تمت في مختلف أنحاء سورية، ولا سيما في محافظات خط الوسط الذي يمر من دمشق إلى حمص وحماه وإدلب وصولاً إلى حلب عاصمة الشمال، واليوم إذ نتذكر تلك الأحداث، فمن الطبيعي التفكير بأنها كانت تدريبات على ما سيرتكبه جيش الأسد ومخابراته من جرائم ضد السوريين عندما خرجوا يطالبون بالحرية في العام 2011.

كانت تلك ملامح الحياة الأولى، التي عاشها جيل حسّان عباس في فترة طفولتهم ويفاعتهم وشبابهم الأول. ولئن كنت لا أستطيع الكلام عن الأثر المباشر عنده، فإني أجزم أنّ الأثر كان كبيراً في ضوء ما تولد لديه من نوايا ظهرت لاحقاً، وما عاشه من محاولات وجهد دؤوب للخروج من أتون ما لحق بالذاكرة من جرائم، وما قاد إليه حكم الأسد الأب، وخليفته الابن من كوارث لسورية والسوريين، مازالت تتوالى فصولها بعد خمسين عاماً من حكم العائلة، وعشر سنوات من ثورة السوريين ضد نظام الأسد الأبن.

عندما سافر حسّان عباس إلى فرنسا، قضى سنوات 1974–1977 في دراسة الطب في جامعة مونبلييه، لكنّ نفسه عافتها، ربما لأنها دراسة تجعل أغلب الذاهبين إليها بسبب من طبيعتها، أبعد عن الانخراط والتفاعل المباشر في قضايا وموضوعات الشأن العام، والاهتمام في تفسير الواقع، ووضع تصورات لتجاوز مشاكله، بل تطوير قوى وقدرات اجتماعية، تساعد في الذهاب العملي إلى التغييرات المطلوبة. وتقديري أن ذلك بين أسباب أدت إلى انكفائه عن دراسة الطب أو ما يسميه «فشل في دراسة الطب»، فعاد لدراسة الأدب الفرنسي في جامعة دمشق، وعاد إلى باريس في العام 1982 ليدرس النقد الادبي في جامعة السوربون الجديدة بباريس، التي تنتج أساتذة في التحليل والتقييم ووضع الخلاصات، وتعليم الآخرين، ولا أعرف إذا كانت تلك التفاصيل حاضرة في ذهن حسّان في ذلك الوقت، لكنني أقدّر أنها كانت حاضرة سواء

بصورة ظاهرة أو كامنة، فقد تربى جيل حسان ومن سبقه على مكانة ودور مهمين للمعلمين والأساتذة في الحياة، ما جعل هذا الدور وهذه المكانة حاضرين بقوة في جميع مستويات وجوانب الحياة الفردية والاجتماعية. لقد كانت رغبة الأولاد في أن يصبحوا معلمين وآنسات وأساتذة بين أول الرغبات، عندما كان يسأل الكبار عما يريد الأطفال أن يكونوا عليه في المستقبل.

إن اهتمام حسان عباس بالتعليم وبالمدرسة، لم يتجسد فقط في اختياره دراسة، تفتح أكثر ما يمكن على ممارسة التعليم، وسعيه لدخول سلك التعليم في جامعة دمشق، وممارسته لعشر سنوات في المعهد العالي للفنون المسرحية، ولكل ما سبق دلالته، والأخيرة تزداد حضوراً في أغلب ما قام به من أنشطة غلب عليها دور المعلم والأستاذ بالمعنى الإيجابي للكلمة، سعياً من أجل تحقيق أهداف متعددة، تتجاوز مجرد تمرير المعلومات والمعارف للطلاب إلى إكسابهم أنماطاً في التفكير والأداء والإدارة، ومشاركتهم قيم الحياة الحديثة المتصلة بالمواطنة والحرية والديمقراطية والعدالة والمساواة ومثيلاتها، والسعي إلى جعلهم حملة ورسلاً لها باعتبارها حاجات ملحة في الخروج مما آل اليه الحال السوري من كارثية ناتجة عن الاستبداد، و«تبعيث» الدولة والمجتمع.

وسط ما تقدم، فإن التعليم والمدرسة، سجلا حضوراً ظاهراً في اهتمامات الرجل وفي كثير مما كتبه من مقالات،

وعبر مقابلات أجريت معه حول جهوده ونشاطاته ونظرته في أثر المدرسة والتعليم على مستقبل سورية والسوريين. إذ يرى أن «المدرسة هي مصنع المواطنة»، قبل أن يوجه اللوم للمدرسة التي كرسها نظام الأسد في حياة السوريين وعجزها عن القيام بدورها المطلوب، وتحولها إلى جهاز تعبوي «وظيفته تنشئة أجيال مشبعة بالفكر الأحادي الذي نصب نفسه قائداً للدولة والمجتمع» من جهة، وتكريسها من جهة أخرى الاختلافات القائمة تاريخياً وثقافياً بين مكونات الجماعة الوطنية، وجعل المدرسة بالنتيجة تربي «أجيالاً لا يعرف أولادها الآخرين، يجهلونهم، والإنسان عدوٌ لما يجهل. وشكّل هذا الجهل، أرضية خصبة للاستقطاب الطائفي الذي دفع إليه النظام كواحدةٍ من أدوات حلّه الأمني العسكري من جهة، وللتشدّد القومي لدى المكوّنات القومية المغبونة حقوقها من جهة أخرى».

إن أهمية ما تمت الإشارة إليه من سوء في دور المدرسة التي كرسها النظام في حياة السوريين، أنه يمثل جزءاً من منظومة خراب التعليم في العهد الأسدي الذي سجل تراجعاً في محتوى التعليم ومستواه، فجعل على سبيل المثال خريجين جامعيين، لا يفقهون شيئاً في تخصصاتهم، بفعل ارتباكات العملية التعليمية، وبين تعبيراتها تردي المناهج، وتدهور الأوضاع المهنية والاجتماعية والمعاشية لجهاز التعليم الذي تم إخضاعه لاعتبارات سياسية وأمنية، وكله متزامن مع تدهور حصة التعليم في الموازنة العامة للدولة،

بغض النظر عما أصاب التعليم وأسرته ومؤسساته في السنوات العشر الماضية على يد النظام وحلفائه من دمار.

كان حسّان عباس باختياره دراسة النقد الأدبي في باريس، يضع قدميه على أول الطريق الذي سيكون عليه مستقبله، وفيه تابع تطورات حياته على مدى نحو ثلاثة عقود مضت، ثم أضاف إلى هذا الخيار تفصيلاً أرى أنه شديد الأهمية، وهو اشتغاله في فترة حياته الباريسية ودراسته الجامعية في المتابعات الثقافية لعدد من الصحف والمجلات العربية في وقت كانت فيه باريس مركزاً للنشاط الثقافي العربي، ليس فقط بسبب تزايد أعداد المثقفين العرب الوافدين من بلدان المشرق العربي المكتوي بنيران الاستبداد وعنف الصراع السياسي في سورية والعراق، وحرب الأخيرة مع إيران، وتطورات الحرب الأهلية في لبنان في الثمانينيات، بل أيضاً نتيجة، ما تمّ ضخه من أموال النفط على الصحافة العربية المهاجرة إلى أوروبا، ومساعي بعض الدول العربية لإبراز اهتماماتها الثقافية على غرار ما بدا الامر في تأسيس معهد العالم العربي في باريس.

عندما تخرج حسّان من الجامعة حاصلاً على شهادة الدكتوراه في النقد الادبي عام 1992 من جامعة السوربون الجديدة بباريس، عاد إلى دمشق، ليبدأ مشروعه السوري من جامعة دمشق، التي اشتهرت في زمن مضى في تخريج نخبة سورية وعربية، لعبت دوراً أصيلاً في السعي لتغيير الواقع في سورية وعدد من البلدان العربية، غير أن رغبته، اصطدمت

برفض الجامعة تعيينه بين أساتذتها بفعل تقارير مخبري النظام، التي كتبوها عنه في فترة دراسته الباريسية، فخسرت الجامعة وجوده فيها، وخسرت علمه وخبراته، التي راكمها، وطاقته وروحه المفعمة بالتغيير الإيجابي.

ربما كان من حسن حظ حسّان وحظنا في آن معاً، أنه لم يقبل في جامعة دمشق، لأنه كان سيحاصر بالبيروقراطية والفساد من جهة، وبتخلف النظام التربوي- التعليمي من جهة أخرى، فاختاره المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، ليكون في عداد كادره الرئيس، ولأن المعهد كان محكوماً بنهج وعقل مفتوح، فقد ركبت طموحات حسّان وإرادته للذهاب إلى ما يتطلع إليه من دور، ويذكر الكثير من السوريين على مدار سنوات طويلة حضوره الفعال في الأنشطة، التي كان يقوم بها المعهد ضمن برنامجه أو بمبادرة من حسّان في مجالات ثقافية وعلمية متعددة فيه، كان الأبرز فيها نشاط ثقافي دوري، استمر أربعة عشر عاماً (مابين 1992و2006) تحت اسم «منتدى الجمعة الثقافي»، أثمر أكثر من أربعمائة فعالية، شارك فيها وحضرها آلاف السوريين والأجانب الذين كانوا يترددون على المعهد، ولعل النجاح الذي أحاط بعمله في المعهد، كان السبب الرئيس في حصوله على وسام «السعفة الأكاديمية برتبة فارس» من فرنسا عام 2001.

ورغم انشغالاته الكثيرة والمتواصلة والمتعددة في المعهد، وكانت تحتاج وقتاً طويلاً وجهداً، فإنه ظل يتطلع

إلى نشاط يقوم به في خدمة الشأن السوري العام سواء عبر المؤسسة الرسمية طالما أتيح له المجال، أو عبر فعاليات في المجتمع، ويندرج في الإطار الأول عمله أستاذاً في المعهد العالي للفنون المسرحية لعشر سنوات، ومشاركته في «احتفالية دمشق عاصمة للثقافة العربية» عام 2007، التي استقال منها «اعتراضًا على سياسة إدارة الاحتفالية»، واشتغاله بمشروع «خارطة ثقافية سورية».

وكان بين نشاطاته غير الرسمية، إدارة ناديين للسينما، وإدارة منتدى الحوار الثقافي بدمشق لأربع سنوات، وتنظيم عشرات الندوات واللقاءات لناشطين اجتماعيين ومثقفين، إضافة إلى ما لعبه من دور في ربيع دمشق سواء في إصدار بيان ال99 الشهير، أو المساهمة في تأسيس جمعيات مدنية، نشطت في مجالات ثقافية واجتماعية وحقوقية بينها جمعية حقوق الإنسان في سورية، قبل أن يقوم بدور مركزي في تأسيس ورئاسة «الرابطة السورية للمواطنة» في كانون الأول 2011، والتي تشكل اليوم بتفرعات مشاريعها ونشاطاتها محور عمل حسّان وفريق من المتطوعين والمتطوعات إلى جانبه.

لا نحتاج إلى تأكيد القول إن نشاطات حسّان عباس، التي لم نحصرها، وإن أشرنا إلى ما نعتقد أنه الأهم فيها، إنما هي حاجة رآها الرجل، وهو يدقق في حال السوريين واحتياجاتهم في ظل نظام الاستبداد والفساد الذي بناه الأسد الأب، مستخدماً سياسة الجزرة والعصا؛ الأولى يشتري بها ضمائر الضعفاء والمتهالكين، والثانية يرد بها على كل

من يناهض حكمه وسياساته، مولداً نظاماً إجرامياً، ذهب إلى الحد الاقصى في ظل خليفته الابن، مضيفاً إلى طبيعة النظام الاستبدادي الفاسد صفات الإرهاب والقتل والتدمير والتهجير.

حسان الذي أعرف...

سمر عبد ربه
مستشارة في الإدارة الحكومية

سواء تمت الإشارة إلى الدكتور حسان عباس بصفته مفكراً أو باحثاً أو كاتباً، فإن اسمه يقترن بالمواطنة. هذا المفهوم الذي كرّس جزءاً كبيراً من حياته لنقله من الحيّز النظري تعريفاً إلى الواقع العملي تطبيقاً. في زمن الاستقطاب المتشدد يميناً ويساراً، وفي وقت أدّعي أن سورية تمر فيه بأسوأ حالاتها على المستويات كافة، يقف حسان عباس موقف المدافع الأول عن الحريات المدنية، ويكتب في الثقافة والوعي، وينشرهما بين أوساط الشباب الذي يتلمس طريقه للوصول إلى دولة المواطنة بمفهومها العالمي الذي يتجاوز الهويات الضيقة، وبما يتناسب مع الواقع السوري.

عندما انطلقت الثورة السورية عام 2011، كان يعرف تماماً أنها النتيجة الطبيعية لتبعيث الدولة السورية، والذي استمر أكثر من خمسين عاماً، اقترنت فيها ممارسات البعث بقمع الحريات، وربط المواطنة بالولاء للبعث، مع بناء علاقة حميدة متينة مع الحركة الدينية التي كانت تؤمّن إخلاص أنصارها ومتابعيها للحزب الواحد والقائد الأوحد.

شخّص حسّان بعقل بارد الواقع السوري، وعمل مع طلابه وزملائه على ترسيخ الحالة المدنية للثورة السورية، إلا أنه توقّع أيضاً مآلاتها مع التصعيد العسكري والأمني للنظام السوري ضد النشاط المدني للثورة على وجه الخصوص كونه عصيّ على الشيطنة، ودفع ثمن مواقفه حيث اضطر لمغادرة بلده ومتابعة نشاطه من لبنان. أدرك حسّان أن هذه الممارسات القمعية، والتي ترافقت مع إطلاق يد الجماعات المتشددة دينياً من قبل النظام لتبرير الحملات العسكرية على المدنيين ستعيد إلى الواجهة الاستقطابات الطائفية.

إن مواقف حسّان عباس المبدئية من دعم حقوق الإنسان في سورية ونشر الثقافة بكافة أشكالها لم تكن طارئة بالمطلق. فمنذ عودته من فرنسا بعد نيله شهادة الدكتوراة من السوربون في النقد الأدبي كان دوماً المبادر لإطلاق الفعاليات الثقافية من نوادي الثقافة والسينما والموسيقى وغيرها. إن إيمانه بالثقافة ودورها في بناء المواطنة استمر لعقود طويلة من خلال عمل جاد ومنظم ودؤوب لم تثنه الملاحقة الدائمة له من الأجهزة الأمنية في سورية عن متابعته بكافة الطرق الممكنة مهما كانت صعوبتها حتى عندما وصل الأمر للتعدي عليه في مهنته، وحرمانه من التدريس، وتجاوز الأذى الذي مارسه عليه النظام السوري حد الاعتداء الجسدي.

أسس حسّان عباس الرابطة السورية للمواطنة عام 2011 إبان اندلاع الثورة السورية فلا وقت أنسب لإطلاقها حيث أنها بنظره من الممكن أن تكون بوصلة السوريين نحو

المواطنة الحقيقية المبنية على التشاركية والحرية والمسؤولية والمساواة، لتكون ثقافة لدى جميع السوريين، وذلك بشكل عملي يحقق المصلحة العليا للسوريين بعيداً عن نكران الطائفية والمذهبية والأقلية الذي رسخه البعث ونظريات الشعب الواحد والتي لم تطبق بشكل واقعي بالمطلق طيلة حكم البعث بل ترسخ عكسها من خلال ممارسات النظام السوري.

سأدع الحديث عن حسّان عباس المفكر والكاتب جانباً، وسأبوح بما يعنيه لي هذا الإنسان بشكل شخصي. لقد حالفني الحظ عام 1995 ودخلت في أحد أيام أيلول قاعة الدراسة لمادة الترجمة السياسية، لأنصت باهتمام لمحاضرته. لمدة ثلاث سنوات متتالية كان لي المدرّس والأخ الكبير والمعلم بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى. أدّعي أن كلاً منا يرى الآخر بعين ترسم له صورة، قد تشبه أو تختلف عن الصورة التي يرسمها الإنسان عن نفسه.

عندما أعود بذاكرتي لتسعينيات القرن الماضي، أذكر أنني كنت أحدّق في شاربيه الكثين وحوافهما المتجهين إلى الأعلى، وأنصت لما يقوله باهتمام؛ لم أوله لمدرس غيره. كان ينتقل في محاضراته من السياسة إلى الفن وبالعكس بخفة لاعب أكروبات، ولم يكن من السهولة بمكان تمييز جدّه من سخريته اللاذعة، التي كانت تطال الجميع بكل هدوء دون مبالغة. كنت أركّز في محاضرته خشية أن تطالني تلك السخرية مع تظاهري بأنني لا أبالي. كان يردد دوماً: على

المترجم والكاتب أن يكون ملمّاً بكل ما حوله وأن السياق الثقافي هو أهم الأدوات التي يجب أن يمتلكها لإيصال الفكرة إلى القارئ والمتلقي. أهم أمثلته عن الاختلاف الثقافي في اللغات كان مثالاً استمررت في استخدامه حتى في سياقات مختلفة عن الثقافة حيث يقال بالفرنسية: Tu m'as rechauffee le Coeur أدفأت قلبي حرفياً دلالة على الاطمئنان، بينما نستخدم بالعربية تعبيراً معاكساً تماماً حيث نقول: أثلجت صدري.

يرى النظام السوري في حسّان عباس العدو الأخطر على حكمه، وأتفق هنا تماماً مع فكر النظام، حيث أنني على يد حسّان بدأت أتعمق بمفاهيم غريبة تماماً عليّ كسورية نشأت في دمشق الثمانينيات، مثل المجتمع المدني، والحريات المدنية، واحترام الرأي الآخر المخالف ورقيّ الحوار وعدم التمسك بالرأي والتعنت والاعتراف بالجهل وغيرها الكثير. فكيف لا يهدد هذا الفكر وجود الأنظمة القمعية؟ كيف يمكن أن يتهم في سوريته وكيف يمكن أن يشيطن؟ كيف يمكن أن يتم ربطه بالإرهاب؟ هذه التهمة المعلبة الجاهزة لكل من ناصر، وأيد الثورة السورية؟ وغيرها من الثورات العربية التي فات حتى أوان استحقاقها؟

مضت التسعينيات بحلوها، ومرها وأتت بي الريح إلى دبي، حيث التقيت زوجة حسّان الطبيبة فاطمة الزهراء والتي ستصبح واحدة من أقرب الصديقات إلى قلبي، وأعود للقاء بحسّان. هذه المرة لا كطالبة بل كصديقة. أعترف بين يديكم أنني ما زلت أرتبك عندما أريد أن أتحدث معه أو أناديه، فهو

يصرّ دوماً على أن أناديه باسمه دون ألقاب، ولا زلت أرى ذلك صعباً. كما أنني لا زلت في كل جلسة معه، أتحدث دون توقف وبحماسي المعتاد حول مفاهيم إدارة الحكومات، وأراقب وجهه بحذر وخشية طالبة، تريد أن تحصد أعلى درجة في الامتحان الشفهي النهائي، وأستفيض في الحديث عندما أرى موافقة في عينيه على ما أقول، لأفاجأ بأنه يختلف معي تماماً في الرأي. حتى وأنا أكتب هذه الكلمات، لا يمكنني إلا أن أفكر برد فعله عندما يقرأها.

من الصعب جداً أن يرسم المرء هذا الخط الرفيع بين الموضوعية والرأي الشخصي في إنسان سيقرأ كلماته عنه. إلا أنني وبكل موضوعية أقول إنني في كل مرة ألتقيه يزداد احترامي لعلمه وعقله وإنسانيته. لإنصاته للصغير قبل الكبير، لكل الآراء التي لا تكون أحياناً ذات قيمة. أتفق معه كثيراً حول القيم الإنسانية ودور الثقافة في تحقيق المواطنة الكاملة غير المنقوصة، والتي تشكل حلماً في عالمنا العربي، وأختلف معه كثيراً أيضاً في نظرتي لإدارة الدولة والمجتمع، وربما يعود ذلك إلى تمسكه بمفاهيم أراها تتغير بشكل متسارع، وتحل محلها المشاريع الاقتصادية غير المرتكزة على الأيديولوجيات السياسية، لكن سواء أتفقت معه أم أختلفت، لا يمكن إلا أن ترفع قبعتك احتراماً لقامة فكرية غزيرة الإنتاج المعرفي وعالية الحس الإنساني ومخلصة لكل القيم الإنسانية بشكل لا يتبدل أو يتغير مهما تعرض للضغوط.

حسان عباس: سورية - الحلم !

علي الكردي
صحفي وروائي فلسطيني سوري

كان يسقي بحنّو شديد نبتة «صبّار» عطشى على شرفة منزله، حينما وخز شوكها إصبعه. سال دمه، وامتزج مع وريقاتها، لكنه لم يتوقف عن رعايتها. باختصار هذا هو حسان عباس: الإنسان... الصديق... المثقف... الأكاديمي المتنوّر الذي سخرّ جلّ وقته وحياته للدفاع عن حقوق الانسان، ونشر ثقافة المواطنة، التي اعتبرها حجر الأساس لفهم قضايا جوهرية يعاني منها مجتمعنا.

لم يتوقف حسان عباس عن الحلم بسورية المستقبل، والعمل الدؤوب في أحلك الظروف من أجل أن تصبح سورية وطناً حراً وديمقراطياً لكل أبنائها، بغض النظر عن هويتهم العرقية أو المذهبية... الهدف: أن يتمتع الجميع بحق المواطنة المتساوية بالحقوق والواجبات دون أي تمييز. تلك هي الرؤية المستقبلية، التي ما برح حسان يعمل من أجلها، رغم إدراكه حجم الصعوبات، والأشواك الدامية على طريق تحقيق تلك الرؤية!

أثناء تصويرنا وثائقي (آهات الحرية) الذي كان حسان

أحد شخصياته، بعد ستة أشهر على خروجه من منزله الدمشقي، قال عبارة ما زال رنينها يضجُّ في رأسي. قال: «إذا في حدا بدو يطلع من البلدْ فأنا رح أكون آخر واحد. حتى أطفي الضو قبل ما أطلع»... لكن مع ارتفاع أعداد المعتقلين، والمغيبين قسرياً، وزيادة منسوب العنف والقتل الذي فاق كل التصورات، أضطر حسّان مرغماً أن يطفئ أنوار منزله، ويغادره على عجل، على أثر اعتقال أحد أصدقائه المقربين، وتهديده المباشر بالاعتقال، بتهمة تأسيس «منظمة إرهابية»!!

طبعاً من سخرية الأقدار أن يُتهم مثقف متنوّر، وأكاديمي مشهود بنزاهته، مثل د. حسّان عباس بالإرهاب، وهو الذي كرّس جلّ حياته لنشر ثقافة «المواطنة»، والدعوة لاحترام حقوق الإنسان، وحرياته الأساسية... وممّن يُتهم؟! من أجهزة الإرهاب المنظم للسلطة السورية، الملوثة أيديها بدماء السوريين!!

حدث ذلك في بدايات الثورة. حينما كانت الأجهزة الأمنية، تلاحق الناشطين المدنيين، وفي الوقت ذاته تدفع دفعاً قوى دينية متشدّدة نحو ممارسة العنف، كي تجد بوصفها سلطة استبداد ما تحتاجه من مبررات، لتصعيد كل أشكال القتل، وممارسة الإرهاب الوحشي ضد المتظاهرين السلميين، الذين نزلوا إلى الشوارع للمطالبة بالحرية والكرامة!

كان بإمكان حسّان، بل من السهل عليه أن يغادر إلى

فرنسا، أو إلى أي بلد في الغرب، لكنه آثر البقاء في بيروت. قريباً من تخوم الوطن. لم يكن الوضع آمناً تماماً بالنسبة له في لبنان، لكنه أهون الشرين، كما يُقالْ، كي يظل على تماس مباشر مع قضية شعبه. على ضوء ذلك استمر مشروع «الرابطة السورية للمواطنة»، الذي بدأه حسان في سورية مع ثلّة من أصدقائه. واستمر مع مثقفين وحقوقيين بالعمل عليه في بيروت تحت شعار: «المواطنة هي الحل». كان الهدف من هذا «التجمع المدني الطوعي» هو: نشر الوعي الحقوقي، وثقافة المواطنة، ومفهوم العدالة الانتقالية بين السوريين، إضافةً إلى توثيق الذاكرة الجمعية، والحفاظ على التراث الثقافي. وهكذا جاء في السياق بعث دار «بيت المواطن للنشر والتوزيع» ضرورة ملحّة، حيث صدرت عنها أدلّة وكتيّبات تعريفية لنشر «ثقافة المواطنة»، إضافةً إلى سلسلة أدبية بعنوان «شهادات سورية». تضمنت تجارب أدبية لعدد من الكتّاب السوريين، لا سيما الشباب منهم، مما عزز ووسع حدود فعاليات اخرى، كانت تتواصل بينها ندوات، وورشات عمل، تشاركت جميعها لتصير في عداد وسائل خدمة الهدف الذي اشتغل عليه حسان وأبرزه «الرابطة السورية للمواطنة»، التي يتولى إدارتها، وهو فعلياً عقلها المدّبر، دون إغفال الدور المهم للأعضاء الآخرين.

يشرح حسان مفهومه للمواطنة بأنها علاقة ذات ثلاث مستويات: العلاقة بين المواطن والدولة، وعلاقة المواطن بالمواطن، ومن ثم العلاقة بين المواطن والفضاء الذي يعيش

فيه. وقد لمس منذ بدايات الثورة أهمية بلورة الدلالات العلمية لمصطلح «ثقافة المواطنة»، الذي أضحى مصطلحاً تحشيدّياً كما يقول. تتناقله الأدبيات المؤيدة للانتفاضة من دون أن تبيّن دلالاته العلمية، وتوضّح ما هي مبادئ المواطنة وقيمها. هذا إضافةً إلى أن أجهزة النظام الأيدولوجية ما فتئت تشوّه مصطلح المواطنة بتعويمه، وإفراغه من محتواه الجوهري، وحصره ضمن دلالة الشعور السطحي بالانتماء إلى الوطن ومحبته، مع تغييب أن المواطنة هي: منظومة قانونية وسياسية واجتماعية وثقافية. لذلك كان لا بد من التصدي لتلك التشوهات، والعمل بجدية على نشر وتعميق «مبادئ المواطنة والدستور والمساواة الجندرية ودور المرأة وخطر الطائفية... الخ» بكل الأحوال لن أسهب كثيراً في هذا المجال، لأن ما يهمني هو الإضاءة على شخصية حسّان الإنسان الصديق الوفي، الذي عرفته بعد خروجي من المعتقل عام 1991. إذ كان واحداً من الذين ساعدوا في ترميم روحي، التي تشظت خلال سنوات العتمة والجمر الطويلة. كان يجيد فن الأصغاء، و يمنحك شيئاً من الثقة والطمأنينة، تشعرك بأهمية سرد معاناة تجربتك وآلامها.

كنت عاطلاً عن العمل، حين كان حسان يعمل أستاذاً في المعهد الفرنسي للشرق الأدنى. علم بوجود شاغر لوظيفة عامل استعلامات في المعهد. مباشرةً اتصل بي، وشجعني على تقديم أوراقي للمشاركة في مسابقة الحصول على الوظيفة. من جهتي كان كل همّي أن أعود إلى عملي في

مجال الصحافة، لكن ذلك كان من الصعب علّي بعد انقطاع دام حوالي عشر سنوات تقريباً. طبعاً لم أحصل على الوظيفة. إذ كان هناك من هو أكثر كفاءةً مني.

أذكر الحادثة فقط كي أشير إلى مدى تعاطف واهتمام حسان بسجين سابق، يحاول إعادة ترميم حياته. في حين تحفّظ آخرون. بعضهم أصدقاء قدامى، وبعضهم أقارب على العلاقة معي خوفاً من الأمن، أو من أن يحسبوا على اتجاهي السياسي. هذا كان حال السوريين في «جمهورية الصمت». الكل يخاف من الكل، والكل يتوجس من الآخر، واحتمال أن يكون مخبراً. لقد سممّ نظام الاستبداد علاقات الصداقة والوداد بين البشر، وشوّه حميمية العلاقات الإنسانية وبساطتها.

كان حسان، وما يزال يعمل بهدوء. دون تبجح أو ادعاء بما ليس فيه. يعمل وفق القيم التي يؤمن بها، وليس وفق ما يريده النظام أو أجهزته الأمنية. لم يحاول بالمطلق أن يستغل، أو يستفيد من هويته الطائفية، أو المناطقية، ولم يستثمر في تاريخ أسرته، مع العلم أن والده هو المحامي المرموق عبد الهادي عباس. أول محامٍ من منطقة مصياف، تخرج من كلية الحقوق بدمشق، وكان نائباً سابقاً في البرلمان، وواحداً ممَّن كتبوا الدستور السوري عام 1950. كل ما سبق إضافةً لشهادة الدكتوراه في النقد الأدبي، التي حصل عليها من جامعة السوربون الجديدة، لم يشفع له في الحصول على فرصة التدريس في جامعة دمشق، أو غيرها من الجامعات السورية،

بينما كانت الأبواب تُفتح أمام الانتهازيين، وعديمي الكفاءة، بسبب ولائهم للنظام. تلك المسألة كانت واحدة من أسباب تدمير بنية التعليم في سورية.

من حسن الحظ أن حسان، وجد فرصته للعمل أستاذاً في المعهد الفرنسي للشرق الأدنى بدمشق، بعد عودته من فرنسا عام 1992. حيث أطلق من المعهد نشاطاً ثقافياً دورياً تحت مسمّى: «منتدى الجمعة الثقافي»، استمر أربعة عشر عاماً. كذلك أشرف على إدارة ناديين للسينما، وساهم في تأسيس وإدارة عدد من الجمعيات المدنية العاملة في مجال (الثقافة والمواطنة وحقوق الإنسان). كذلك درّس في المعهد العالي للفنون المسرحية في دمشق.

لا بد من الإشارة إلى أن حسان قد جعل من «منتدى الجمعة الثقافي» واحة حقيقية للحوار، وتذوق الجمال، وسط حالة التصحّر التي فرضها النظام. مع الزمن أصبح لهذا المنبر التنويري روّاده الدائمون، الذين نهلوا بشغف من زاده المعرفي والثقافي، ومن وجباته المتنوعة في مجال الأدب والفنون البصرية، والدراسات الاجتماعية، إضافةً إلى تذوق أنواع من الموسيقا الحديثة والتراثية، وتعريف رواد المنتدى بتجارب واعدة من خلال استضافتها، والإضاءة على تجاربها.

كنت متابعاً دائماً للمائدة الثقافية المطروحة في منتدى الجمعة الثقافي. أغتبط بإدارة حسّان الديمقراطية الذكية للمنتدى، واختياره المتنوّع للمواضيع التي يطرحها، التي

تجمع ما بين المتعة والفائدة. كان حسان كادحاً ثقافياً بكل معنى الكلمة. لا يقتصر عمله على البحث واختيار الموضوعات الفكرية والثقافية والتحضير لها، بل كان يتابع كل تفصيل، وكل شاردة وواردة ويصل الأمر إلى قيامه شخصياً بكل تواضع، بإعادة ترتيب القاعة قبل وبعد انتهاء الفعالية. يقوم بنفسه بجمع الكراسي والأدوات وإعادتها إلى أماكنها. كان بعض الشباب يتطوع إلى مساعدته دون أن يطلب ذلك. كان حسان في الحقيقة، يعمل على ترسيخ تقاليد وقيم نبيلة، ويعطي مثالاً مضيئاً للمثقف المتنوّر، الذي يفهم الثقافة كفعل تغيير وبناء للمجتمع، وليس مجرد تنظير وادعاء فارغ.

لا أنسى على المستوى الشخصي. الأيادي البيضاء لحسان في دعمي، ومساعدتي في مفاصل جد مهمة وحساسة واجهتني. بالتالي لا بد من باب الوفاء، والامتنان الإشارة إلى بعضها. لا أنسى احتفاءه بإصدار مجموعتي القصصية الأولى عام 1998 «موكب البط البري». أهديته نسخة من المجموعة، لكنه فاجأني بطلبه شراء عشرين نسخة وزعها على طلابه في المعهد. تكرّر الأمر مع إصدار روايتي «قصر شمعايا». كذلك لم يرفض أي تعاون معه للمشاركة في الأفلام الوثائقية، التي أقوم بإعدادها. كان لديه الكثير من تلك الالتفاتات الصادقة لمن هم حوله، التي تحمل في طياتها ليس فقط الثقة والدعم المعنوي، وإنما نظرة عميقة للمستقبل.

التقينا في بيروت بعد الثورة خلال عامين. قبل أن أغادرها في نهاية 2014. كان كل لقاء يحمل معه، إضافة إلى

دفء الحوار وعمقه، مشاعر إنسانية حميمة. تخفّف من وطأة الحصار والغربة. كنت أتابع إحياء حسّان لعروض النادي السينمائي في بيروت، الذي استقطب عدداً لا بأس به من السوريين واللبنانيين، وفي الوقت نفسه كنت أُتابع نشاطات «الرابطة السورية للمواطنة» وإصداراتها. التي كان لها أكبر الأثر في تصويب الكثير من الرؤى والأفكار. أخيراً لن أنسى المساعدة الكبيرة التي قدمها لي حسان بعد حجز وثيقة سفري كفلسطيني سوري لدى الأمن العام اللبناني، ورفضهم تجديد إقامتي، مع إصدار قرار بالمغادرة خلال خمسة عشر يوماً. رغم أن حسان لا يقوم عادةً بالوساطة لأي شخص، ولا يحب أن يضع نفسه في هذا الموقف، إلّا أنه أمام خصوصية حالتي اتصل مباشرةً بمنظمة صحفيين بلا حدود، وشرح لهم صعوبة حالتي. الأمر الذي عجلّ في حصولي على فيزا للسفر إلى ألمانيا.

صديقي الجميل حسان أفتقد في البعد قربي منك في عالم الغربة البارد، كما أفتقد أصدقاءنا المشتركين الكثر. هذا الافتقاد واحد من خساراتنا الكثيرة الفادحة في عالم يضجُّ بالرياء والكذب!

لا أدري. هل ستسمح لنا قادم الأيام في اللقاء مجدداً في سورية المستقبل. سورية الحلم كما نشتهي. في بلد ديمقراطي حر. يحتضن بدفء وحب كل أبنائه؟!

إننا على طريقة الراحل سعد الله ونوس: لن نكفّ عن تربية الأمل.

مأثرة حسان عباس!

ميشيل كيلو
كاتب وصحافي سوري

من المفارقات المهمة واللافتة ذلك اللقاء الذي أنتجته سياسات النظام الأسدي عند منعطف القرن بين الظرف العام من جهة، وبين إرادة التغيير، التي ترتبت على تفاعل قطاع واسع من المثقفين السوريين، المهتمين بالشأن العام، مع وعي مدني أساسه اقتناعهم بحاجة المجتمع السوري إلى طرق تخرجه من مأزق شامل، سد درب تطوره وكسّره، بعد انفراد عسكر البعث بالسلطة إثر انقلاب عام 1963، وما أدى إليه من احتجاز للسياسة كشأن عام قصر حقلها على «قائد» وسلطة تعاونه، نقلا سورية من وعد «الوحدة والحرية والاشتراكية» إلى واقع طائفي، ومجتمع كان يسير، بهذا القدر أو ذاك، نحو الوحدة والاندماج الداخليين، على أسس حديثة نسبيا، فوجد نفسه خاضعا لدولة عميقة، قصرت عملها على تطييف المجال العام، وتبديل هوية الدولة بإرساء أسس ما قبل وطنية، ما قبل مجتمعية، أدارت سورية بسياسة؛ لحمتها وسداها العنف، فكان من الضروري مواجهتها من خارج منظومتها وتنظيماتها، عبر السعي إلى بث الروح في المجتمع، والرهان عليه كفاعل يتعين الشأن العام بأنشطته

وأهدافه المتصلة بمجال عام ينهض على أسس غير نخبوية، تختلف أحزابها بنيوياً ووظيفياً عن الأحزاب النخبوية والأيديولوجية التي عرفتها سورية منذ الربع الأول من القرن العشرين، وتغربت عن السياسة كفاعلية مجتمعية مباشرة، أو تخلت عنها، فلا عجب أن ضاق مجال سياساتها عن الشأن العام، وتناقض غالبا معه، واقتصر على السلطة، أو من دار في فلكها، واعتبر مسائلها، وليس المسائل المرتبطة به وبشؤونه، القضايا التي يجب أن تستأثر باهتمامه، وينصب عليها نشاطه.

أدى نقد هذه البيئة والانفكاك عنها إلى قيام قطاع واسع من المثقفين الديمقراطيين بتأسيس ما عرف بـ «لجان إحياء المجتمع المدني»، التي قالت بالحرية كرهان رئيس ووحيد للمواطن، لا بد أن تتفرع عنه رهاناته الأخرى، من غير الجائز إلحاقه بغيره من الرهانات أو اعتباره رهانا تابعا، ويجب إلحاق جميع أنشطة وخيارات السوريين به، أي بحريتهم، إن أرادوا الخروج من بؤس حالهم، وإرساء وجودهم الخاص كأفراد، والعام كمواطنين، على أسس مجتمعية تتخطى الانتماءات التي تتعارض معها، أو تعيد تعريفها وتعيينها بما يخرجها من شرنقة السياسوية الضيقة، ويعيد تأسيسها بدلالة المجتمع بصفته هيئة مواطنين أحرارا ومنتجين، بدل تهميشهم وفصلهم عن شؤونهم، كما فعلت الأسدية، وبالتالي عن مصالحهم، واحتجازهم في إطار أمر قائم يرى في إرادتهم، التي غيبها، مصدر شرعيته.

هذا التيار، الذي تخلق أواسط عام 2000، قبيل وفاة

حافظ الأسد، تشكل من روافد عديدة، وتكاملت أنشطة الذين انتموا إليه من مثقفين بقوة توجههم الموحد إلى المجتمع، كأساس لأي فاعلية سياسية وحاضنة للشأن العام، وخروج معظمهم من عباءة الأحزاب القائمة، وتبنيهم رؤية اعتبرت حرية الإنسان/ الفرد رافعة أي نشاط عام، سواء انطلاقا من دائرتها الشخصية المباشرة، التي اعتقدوا أنها تتسم بطابع يتخطى حاملها كفرد، ويتقاطع مع الدائرة المجتمعية العامة، حيث تلتقي حريات الخصوص مع الحرية كفضاء عام، وتطرح على حملتها ضرورة الخروج من الأمر القائم، وحتى الثورة عليه.

هذا الرهان، الذي نهضت عليه خطة سياسية هذا مضمونها، التقت فيه جهود عديدة برز خلالها جهد الدكتور حسان عباس، الذي نحتفي اليوم به كظاهرة، تخطت مجالها الخاص، وجسدت في مواقفها وخياراتها التقاء الحرية كحق شخصي، لا يجوز تقييده بأي قيد، وحق العموم في الانخراط ضمن مجتمع مدني ومواطنين أحرار، باعتباره الأساس الذي يجب أن تنهض عليه دولة هؤلاء المواطنين، الذين تتعين السلطة الحاكمة بهم، لتكون بدورها سلطة مدنية، بدل أن تتعين صفاتهم هم بها، كما هي حالهم في النظام الأسدي.

بانطلاق الدكتور عباس من الحرية كخصيصة يتعرف الإنسان بها، فإنه كان من المحتم أن يؤسس دولة المجتمع المدني على المواطنة، ليتساوى أمامها السوريون في كل ما يتصل بحقوقهم وواجباتهم، وبتعين الشأن العام والحقل

السياسي بهم، وتعينهم به كضامن لحرياتهم، فقد جانبه القهري أو أقلع عن استخدامه ضدهم، لأنه لم يعد يرى فيهم رعايا/ أعداء. قال حسان عباس بالمواطنة كحلقة رئيسة، كرس جهوده لتحقيقها، فكان من المحتم أيضا أن ينصب اهتمامه على بناء ونشر الوعي بها لدى عامة السوريين. لهذه الغاية، أسس «رابطة المواطنة»، وجعل شعارها «المساواة والمسؤولية والمشاركة»، بما هي تجليات حتمية للحرية: أساس الدولة المدنية الديمقراطية المنشودة لسورية.

وقدم للرابطة تعريفاً يقول: «إنها تجمع مدني طوعي لكل من يرغب في العمل على ترسيخ المواطنة وقيمها على صعيد العلاقة بين المواطنين، والعلاقات بينهم وبين الدولة، والعلاقات بينهم وبين المحيط الذي يعيشون فيه. ومع أنها ليست تنظيماً سياسياً، فإنها تعمل في الشأن العام وتسعى إلى أن تكون ذات تأثير في المجتمع المدني». أما هدفها فهو: «المشاركة الفاعلة والواعية لأي شخص دون استثناء أو وصاية في بناء الإطار الاجتماعي والسياسي والثقافي للدولة». وقد حدد الدكتور عباس أهداف الرابطة بما يلي:

1- نشر ثقافة المواطنة والدفاع عنها.

2- تعميق المعرفة بالهوية الوطنية وثقافتها.

3- تعميق الخبرات بقضايا المواطنة.

4- ترسيخ مبدأ الحرية المدنية كأساس لكل ما يقوم به المواطن.

5- تكريس مفهوم المساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات.

6- العمل نظريا وميدانيا لتكريس مبدأ المشاركة في الحياة العامة.

7- ترسيخ ثقافة المشاركة والتطوع في الحياة العامة.

8- رفع وعي المسؤولية لدى المواطنين.

9- تنمية قيم المواطنة كالكياسة والتضامن والوعي المدني والانساني.

10- تأهيل كفاءات في قضايا فض النزاعات والسلم الأهلي والعدالة الانتقالية.

11- تحسين أوضاع اللاجئين السوريين، وحماية التراث الثقافي المادي وغير المادي على الصعيدين الوطني والعالمي.

وقال باعتماد الرابطة في تحقيق أهدافها على جميع أشكال العمل المدني المتاحة والممكنة، كورشات العمل والدورات التدريبية، وحلقات النقاش والندوات والموائد المستديرة والأنشطة الميدانية، وتبادل الخبرات، والتشبيك، والنشر والإعلام، والدراسات، والتوثيق.

بتمييزه بين مستويات علاقات ثلاثة للمواطنة، غطى حسان عباس سائر مجالاتها ووسعها وجعل الدلالة التي تتعين بها هوية الدولة من جهة، والمجتمع وروابط الفرد

بمجمل بالجماعة الوطنية من جهة أخرى. وقد لفت النظر في حينه، فضلا عن ذلك، المكان الذي خص به الحقوق المدنية كمحدد ما فوق سياسي للمواطنة، ومعيار لحرية الفرد واستقلاله كشخص عام ينتمي إلى سياق أوسع من السياق الذي تمنحه له حريته في الدولة والسلطة، ويضعه في مستوى قانوني ومجتمعي تحصنه شرعيته ضد انحرافات السياسة وتنظيماتها الضيقة، وتسمو معاييره وضماناته على معايير وضمانات حقلها الخاص ونظمها الحاكمة، التي إن انتهكت حقوق المواطن القانونية والدستورية، السياسية عموما، وجدت نفسها في مواجهة حقوقه المدنية، التي لا ترتبط بعلاقات وموازين القوى الناظمة للسياسة وعلاقاتها، وإنما تنتمي إلى فضاء أوسع منها هو فضاء الإنسان كاسم نوع لمواطن الدولة، الذي يرتقي وجوده بقدر ما يعتبر معياراً لعلاقاته على الصعيد السياسي، وما يمتلك من حصانات على صعيده الإنساني/ الفردي، المستقل عن السياسة في مجال علاقاته مع الذوات المجتمعية الأخرى، التي ينتمي إليها انتماء حرية يتخطى أي انتماء خاص أو ضيق، أكان مع الدولة أم مع تنظيم حزبي ما.

هذا التأكيد على الهوية المدنية لحقوق المواطن الحر، هو الهدف الذي جعله حسان هدفه الرئيس، وجعل نشر وعيه مهمته، ووضعه خارج علاقات وموازين القوى، من أي نوع، بما فيها تلك التي تتعين حتى في النظام الديمقراطي بصراعات تضمر المس بطابع المواطنة السياسي، وتقييده، فإن تعينت

المواطنة بالحقوق المدنية، بقيت بمأمن من الانتكاس، وتصدى المجتمع نفسه لأي انتهاك تتعرض له، وكانت المرأة في طليعة المتصدين، لأن حفظ حقوقها المدنية، يمنحها ما تصبو إليه من حرية شخصية، واستقلالية في كل ما يتعلق بخياراتها وعلاقاتها، بغيرها وبنفسها، بينما تخضع حقوقها السياسية لقراءات تحتمل الالتفاف على وضعها كمواطن، وتسمح بقراءات تتناقض معها.

بربط الحرية بالحقوق المدنية، وبجعلها بنية فوقية للدولة والمجتمع، وبربط الشأن العام بصيغتها الشاملة، التي تغطي علاقات الأفراد بمجتمعهم وبأنفسهم، في الفضاء الذي تنظم وتضبط وتحمي ما فيه من حقوق، وبإضفاء صفة مدنية على الحرية التي يتمتع بها الأفراد، بنى حسان عباس تراتبا سياسياً/ مدنياً قاعدته المواطن الحر، المصان بحقوق مدنية تحميه من انزياحات حقوقه السياسية، والذي يمثل البناء التحتي لمجتمع مواطنين أحرار يحملون من جانبهم دولة تتعين أشد التعين ببنيتيها الفردية والمجتمعية، مما يجعلها مؤسسة تنمي حقوق المواطن الفرد، وبالتالي حريته، لتنمي عبرها هويتها المجتمعية، ووظيفتها الوطنية والانسانية.

... هذه هي مأثرة حسان عباس ورفاقه، ومأثرة لجان إحياء المجتمع المدني، وهذا هو الدور الذي لعبوه في خدمة الحرية والعدالة والمساواة والكرامة الإنسانية: القيم التي نادت بها ثورة عام 2011، وقدمت من أجلها أعز التضحيات، ويحق لنا أن نعتبره أحد روادها والمبشرين بها.

الدكتور أبو آرام

عمر الجباعي
كاتب ومسرحي

تشرين الثاني 2002، السنة الثانية في المعهد العالي للفنون المسرحية، قسم الدراسات المسرحية، المادة: نقد أدبي، المكان: قاعة أشبه بزائدة دودية تتدلى من صالة المكتبة في المعهد، القاعة صغيرة جداً، ونحن، أو أنا على الأقل، طالب في السنة الثانية يعتقد لسبب أو لآخر أنه ختم العلم، ولم تبق لي من مهمة في هذه الحياة إلا أن أفيض بنوري على البشرية الجرداء المعتوهة. لكن ما فاض يومها في تلك القاعة شيء آخر، شارب أبيض، فاض في قاعتنا ذلك الصباح شارب أبيض يوحي بأنه يمتد من كتف صاحبه الأيمن إلى كتفه الأيسر، ربما من المعقول أكثر أنه لم يكن يتجاوز حدود فم صاحبه في الحقيقة. لكنه يوحي بذلك الذي تقول عنه العرب: بيوقف عليه النسر. وأغلب الظن أن في اللغة العربية كلمة محددة تدل على هذا النوع من الشوارب، أنا لا أعرفها، ولكن أغلب الظن، أن صاحب الشارب يعرفها في حال كانت موجودة. هل كان الشارب أبيض وقتها؟ أغلب الظن. كان أبيض دائماً. أليس هذا لون الحكمة؟!

ممتع الحديث عن الشوارب، وأيضاً: شجرة دفلى يمكنني أن أختبئ خلفها من الكتابة المباشرة عن الدكتور حسان، أختبئ خلف شاربه، فالكتابة عمن نحب لا تكون عادلة بحقهن (النون نون النسوة) عادةً، ولا تكون عادلة بحق القارئة أو القارئ، إذ سرعان ما تتحول إلى مديح لا إنساني، ولكن لا تكون عادلة أيضاً الكتابة عمن نكره، أليس كذلك؟

في ذلك اليوم، في تلك القاعة الدودية، دخل الشارب الأبيض يتبعه أنف معقوف فوقه نظارة، وعينان تشبهان عيون الطيور، وفوق الكل صلعة لامعة، شبه جزيرة يحيطها من ثلاث جهات شعر أبيض خطه السواد:

اسمي حسان عباس.

لا أذكر ما اسم المادة التي درسنا إياها د. حسان في المعهد العالي للفنون المسرحية. أم هي عدة مواد؟ لا أذكر إن كانت مادة النقد الأدبي، أم الأدب الغربي الحديث، أم ربما مادة موضوع خاص؟ لا أذكر في الحقيقة، ولذلك سبب، أتحدث عن نفسي على الأقل، فحامل درجة الدكتوراه في النقد الأدبي السيد حسان عباس لم يعلمني شيئاً، ولا أعتقد أنه كان يسعى لأن يعطينا معلومات، بالنسبة لي على الأقل، فعل ما هو أهم، لقد درّبنا على الحياة، وعلى أهم ما فيها: الحرية.

كان يستطيع مثلاً وهو الذي يتقن لغتين ويعرف لغتين أخريين على الأقل، كان يستطيع أن يلقمنا أسماء الفارابي

والجرجاني وابن رشد ولوسيان غولدمان وميشيل فوكو وبيير بورديو، ثم يخرج من الصف، ونقدم امتحاناً بما حفظنا فينجح من يحفظ وكفى الله المؤمنين شر التفكير. لم يحدث ذلك، ليس الامتحان هو المهم، بل الإنسان. لم يكن يهتم بتسجيل الحضور والغياب كثيراً إلا كممارسة إدارية، ولم يكن مهماً بالنسبة له أن تقول/ ي رأياً صائباً، بل المهم أن تقول/ ي رأيك، كانت الحصص نقاشات طويلة تبدأ من معلومة بسيطة، ليصل النقاش بتشعباته إلى دور السريان واليهود في الترجمة عن اليونانية، وتحليل لوحات عصر النهضة، وعن بناء الجوامع الباذخة في بلاد الشام لتُشابِه الكنائس، على عكس جوامع شبه الجزيرة العربية المتقشفة حتى وقت قريب، وصولاً إلى بيان ال 99، وربيع دمشق... وهكذا.

في دروسه كان موسى بن ميمون ينطلق من الأندلس في القرن الثامن ليحط على فيلم «المرآة» لتاركوفسكي في دمشق القرن الواحد والعشرين.

في دروسه دربني حسان عباس على ممارسة الحياة، على أن المعرفة بحد ذاتها مهمة، ولكنها تفقد تلك الأهمية ما لم توظَّف في الحياة، وما لم تتحول إلى فعل وسلوك. وأنها دون حرية، معرفة مخصية. كل ذلك جعلني ذات يوم أكتب له على بطاقة بريدية: إلى الدكتور «حرية»...

المعرفة يجب أن تستخدم في الحياة، ويجب أن تبنى بتأنٍ، ينصحني: اقرأ على مهل. هذه نصيحة أراها طريق عيش،

فالمعرفة لا تأتي من قراءة الكتب فقط، المعرفة في معظمها تأتي من قراءة الحياة، وكلا القراءتين لتكونا مجديتين، تحتاجان لأخذهما باللين والتمهل، وهذا أمر يجيده حسان عباس دون أن يقصد إليه، أو إنه قصد إليه حتى لم يعد يبدو بأنه يقصد.

بالحديث عن الحياة والمعرفة أتذكر أم رأفت، والسبعيني، وسد المزينة، وتفاح بيدر الرفيع، وسلال حب نمرة، وقلعة الحصن، وسيجار في مكتب ضابط رفيع متقاعد (أو يظن نفسه رفيعاً على الأقل) في قرية عين العجوز على ما أذكر، وطقوس سهرات تكريك العرق في المشتاية (تقطير العرق)، وابتسامات طالبات وطلاب يوزعون استبيانات على الأهالي، واحتلال الإسمنت لجمال مرمريتا.

الخيط الذي يلم كل هذه القطع هو وادي النصارى، حيث بدأ د. حسان مشروعاً طموحاً لبناء خارطة ثقافية لسورية، بدأه في وادي النصارى، ليكون نموذجاً تجريبياً يمكن الانطلاق منه لبناء خارطة ثقافية لسورية كلها، من الحسكة إلى درعا، ومن البوكمال إلى طرطوس.

عملنا في وادي النصارى بداية من العام 2009 على عدة مسارات كي نتعرف على ثقافة المنطقة، أو ثقافاتها، وعلى مواردها الثقافية طبيعية كانت أم بشرية، مادية أم غير مادية، من هذه المسارات مثلاً استبيانات تم توزيعها على الأهالي، ومنها الحوار مع مجموعات من الأهالي في القرى، وأيضاً

الحوار مع شخصيات معينة في قرى الوادي، كنا نسميهم الخبراء، وهم إما شخصيات معروفة اجتماعياً، أو لديها خبرة معينة، منهم الزجالون مثلاً، أو خبراء في الزراعة، أو في تاريخ المنطقة وطقوسها، أو في الطبخ، وغير ذلك.

الحوارات مع الخبراء، كانت تتم في بيوتهم غالباً، وكنت أنا مساعد الباحث الغر الذي يريد من الناس أن يفهموا، وأن يعطونا ما نريد كما نريد، لكن من حسن حظي وحظ المشروع وحظ الخبراء أن حسان هو الذي كان «يستلم» الحوار معظم الوقت. وربما تعطيكم القصة التالية فكرة عن السبب الذي يجعلني أقول ذلك:

في إحدى الحارات الثلاث لقرية «المقعبرة» في الوادي (الحارات الثلاث هي حارة بيت ضومط، وحارة بيت محفوض، وحارة بيت جرجس) التقينا السيد (ن) وهو من الشيوعيين القلة في الوادي الذي يطغى عليه السوريون القوميون الاجتماعيون، وفي سياق الحديث اتضح أن السيد (ن) مغرم بالطبيعة، وبالحفاظ عليها، ولأن الدولة لا تلقي بالاً إلى ذلك، قرر أن يحمي ما يستطيع حمايته بزنده، كما يقال، حتى أنه ذات مرة سمع طلقاً نارياً في حرش قريب، فخرج يحمل «الجفت»، وقصد صوب الصوت، ليجد مجموعة تتريض باصطياد الطيور، وكان الصيد ممنوعاً في هذا المكان، وكان بين الصيادين السيد سليمان فرنجية السياسي اللبناني المعروف وصديق عائلة الأسد (المعروفة أيضاً)، فطلب السيد (ن) من المجموعة التوقف عن الصيد ومغادرة المكان،

طبعاً سليمان رفض، بل حاول تحديه، فما كان من السيد (ن) إلا أن أطلق رصاصة في الهواء مهدداً بأن الرصاصة التالية ستكون موجهة إلى سليمان نفسه، فتراجع الأخير يقول للسيد (ن) إن الأمر لا يستحق كل ذلك، وأنهم كانوا سيغادرون على كل حال.

حين خرجنا من بيت السيد (ن) لم أكن راضياً كثيراً، فالرجل لم يقدم لنا معلومات كثيرة، أما حسان فكان كطفل فتح هديته للتو وعينيه تلمعان بالسرور والمفاجأة. سألته:

صدّقت قصة سليمان فرنجية دكتور؟ حتى لو كانت صحيحة، ما بتخيل إنو هدده. بعدين يعني إبن فرنجية بدو يترك غابات شمال لبنان كلها ويجي يصيد بالوادي؟

نعم، هذا نوع الأسئلة التي يطرحها الأغرار.

لم يبدُ على حسان أنه سمع سؤالي، كان سعيداً ومنفعلاً، قال لي وكأنه وجد كنزاً:

انتبهت قديشو متعطش لتطبيق القانون؟ معقول كل هالحُب اللي طلع منو وهو عم يحكي عن الحرش والطيور، انتبهت كيف عبط بنتو وهو عم يحكي القصة؟!

قد يكون صدق القصة من عدمه مهماً، لكن الأهم هو ما تريد صاحبة القصة أو صاحبها أن يقولاه من خلالها، أليس هذا درساً في النقد الأدبي أيضاً؟

هكذا يفكر الرجل الذي يحمل شهادة من جامعة السوربون، هكذا تراه في وادي النصارى، طفلٌ لا يحمل شهادات، طفل يراقب ويتعلم، ويعلمنا كما يعلمنا الأطفال بعفويتهم ودهشتهم.

فحسان الذي يستطيع أن يمتعك بأشعار للنفري والمعري وسعيد عقل ورياض الصالح الحسين، بل ويفاجئنا أحيانا ببعض العتابا، كان يجلس بين يدي زجال وشاعر شعبي في قرية «شْوَاهِد» استقبله على باب الدار بعتابا ليتني أذكرها كاملة، لكن مطلعها كان «يا بو الشارب على كتافك مِكَفِن»، كان حسان يجلس بين يديه كمريد، يستلذ بما يقدمه شيخه.

ربط المعرفة بالحياة، هذا ما كان يسعى إليه حسان عباس من مشروع الخارطة الثقافية، فالهدف ليس جمع الموارد الثقافية وكيفية التعامل معها في بحث، الهدف كان أن يبنى على تلك المعرفة مشاريع تنمية مستدامة ثقافية الطابع، وتنوع الوادي يسمح برحلة ثقافية غنية، من قلعة الحصن إلى دير مار جرجس في المشتاية والقصر ثم المدرسة الروسية في الكيمة التي تحوي كنيستها أيقونات نادرة، لتنتهي على ارتفاع نحو ألف متر في بيدر الرفيع، رحلة تطلعنا على أديان ومذاهب شديدة التنوع، تُعرف على طقوس عودة المغتربين من الكويت في عيدي الفطر والأضحى إلى قرية الحصن، وعلى طقوس عيد الفرح بالرب عند المرشدية، وعيد الغطاس عند الأرثوذوكس والكاثوليك والعلويين، وتُفسر لماذا لا يفضل شهود يهوه الظهور علناً في الوادي، وفي

سوريا عموماً، وكيف دخلت الكنيسة الإنجيلية إلى المنطقة، ولماذا من المهم بناء مدرسة لتعليم الثقافة العربية للأطفال الذين يعودون مع أهاليهم في الصيف إلى قرى الوادي من دول البحر الكاريبي... الكثير يمكن أن يقال بعد، والكثير كان يمكن أن يتغير، ربما بشكل جذري، لو استُكمل المشروع كما كان حسان يفكر به فعلاً، ولهذا فيما أظن أوقف المشروع من قبل الأمانة السورية للتنمية التي كانت مشرفة عليه أواخر عام 2010، وحولته إلى مجرد كتيب يضم بعض المعلومات، حولته إلى نقيض حسان. في حين استمر مشروع «حلم حمص» الذي كان يدمر ثقافة الوادي ومقوماته كما ثقافة ومقومات باقي المناطق في محافظة حمص، أو هذا على الأقل كان رأي أغلب من قابلناهم/ ن من الناس في وادي النصارى وقتها.

في هذا النص المرتجل إلى حد ما، سنحت لي الفرصة لأسمي حسان باسمه أحياناً، دون ألقاب، فبعد نحو عشرين عاماً من تتلمذي على يديه، لا زلت أناديه «دكتور» أو «حكيم» حين أريد مخاطبته، تحدثنا عدة مرات عن ذلك، يصر هو على أن «حسان» كافية، فاسم المرء لا يعيبه، أحاول، فلا أجد إلا لقب «دكتور» وقد تنطع في المقدمة ليبرز قبل الاسم، في السنة الماضية، على التراس في سكنه البيروتي، أعد لنا كوكتيلاً كحولياً أزرق اللون، برتغالي الجنسية، لا زلت أنسى اسمه كلما ذكرني به، على التراس قلت له: ربما الأفضل أن أناديك «أبو آرام»، قال: عندها يجب أن تناديني أبو آرام ويزن،

وهذا متعب، ثم أنا لا أشعر أن تعريفي الوحيد في الحياة هو كأب لآرام ويزن. قلت له: لكان رح صير قلك دكتور أبو آرام.

لكن ربما أكثر الأسماء التي تناسبني له هو: معلمي. فبصحة معلمي الدكتور أبو آرام إذن، وبصحة سورية وثقافاتها المتنوعة، وبصحتكن.

رحلة قصيرة في
مقالات حسان عباس

مزن مرشد
كاتبة وصحافية

يطرق حسان عباس أبواب المسكوت عنه والممنوع أحياناً، في مقالات الرأي التي ينشرها في أكثر من وسيلة إعلامية عربية، فيعبر من خلال مقالاته ليس فقط عن وجهة نظره الشخصية في أي موضوع يتناوله، بل يستعرض بتحليل منطقي عن دراية ومعرفة موقف الكثير ممن يشبهونه بأفكارهم وتوجهاتهم الثقافية والفكرية.

ففي مقال له بعنوان «من أين جاؤوا» نشر في صحيفة المدن اللبنانية، يتطرق حسان عباس لسؤال طالما أرق السوريين، بعد ظهور الجماعات الإسلامية في البلاد وممارستها العنف بشكل مفرط، والذين برزوا فجأة في المشهد السوري، في بلد لم تك يوماً حاضنة لمثل أفكارهم المتطرفة فيقول في مقاله: «الشيخ المسلم يقول هؤلاء لا يمثلون الدين الحنيف. الموالي للنظام يقول إنهم غزاة من بلدان أخرى. الرئيس الأميركي ينعتهم بالسرطان فيما يمكن اعتباره إشارة منه إلى كونهم، مثل هذا المرض، مجهولي الأصل.... الجميع يتبرأون من اللوثة، وإن كانوا (السياسيون

منهم) في الحقيقة يتلمّظون، خلف أقنعتهم التطهريّة، استساغةً للحلوى التي ترميها هذه الجماعات العنيفة فوق أطباق مصالحهم».

ويظهر انصهار حسان عباس وفهمه العميق للواقع الذي تعيشه بلاده جلياً في تحليل الظاهرة ومرجعيتها، غير متبرئ منها، وغير ناظر إليها من برج المثقف، أو المنظِر البعيد عن الواقع فيتابع في ذات المقال: «إن وجود العنف في المرجعيات المؤسِسة للثقافة الدينية يشرعنه حتما، ولا يعارض بالتالي ممارسته إذا ما وُجد المناخ المؤاتي لذلك. وهنا تقوم الرابطة بين ما هو ديني في العقيدة وما هو دنيوي في السياسة. العقيدة ترمي البذار والسياسة توفّر لها ظروف الإنتاش. فنظام الاستبداد لم يقم بما يسمح بتحييد الثقافة الدينية، بل على العكس قوّاها ومكّنها، مراءاةً أو تدليساً وربما غباءً. لن نكرر هنا ما صار معروفا من غزل النظام للثقافة الإسلامية بشتى طبقاتها حتى الجهادية التي جعل لها موقعا متقدما في البلاد تنشر منه وتنتشر. لكن هذه لم تكن «الخدمة» الوحيدة التي يقدمها النظام للتشدد. فهو باستخدامه المفرط، بل قل الأسطوري، للعنفِ أيقظ العنفَ المرَوّض في نفوس المتدينين ودفعهم دفعا إلى تفعيله فيما أصبح، في نظرهم، بمثابة صراع للدفاع عن الوجود».

ولا يبتعد عن صلب المشكلة مدركاً ومحاولاً أن يوصل فكرته للقارئ، فيختم مقالته التي بدأ بسؤال، بسؤال آخر وهو «لذا فالسؤال الصحيح أمام ظاهرة التكفيريين

المجرمين ليس: «مِن أين جاؤوا؟» وإنما «مَن جدّ واجتهد حتى يظهروا؟».

في الذكرى الرابعة للثورة اعتبر عباس الثورة مولوداً مدللاً يحتفل الأحرار بميلاده الغالي، ليلمس القارئ والمتابع جمال روح الثورة تخرج من الكلمات، فكان المقال الصحفي بمثابة هدية من قلب مُحب مبتهج لثورة يتيمة، كانت وما تزال تحتل في قلوب السوريين مكانة العاشق المتعطش لفرحة اللقاء:« دخل سورية عامها الرابع ثورة. «العمر كله» كما نقول احتفاءً بميلاد مجيد».

في ذلك الوقت كانت قد بدأت تتحول الثورة لحرب إبادة شنها النظام على شعبه، واختلفت فيها الآراء فكل يسميها بحسب ما تقتضيه أديولوجيته أو توجهه، لكن حسان عباس لا تعنيه التسميات ليبقى حاملاً لفرحه الأول بها، حاملاً روحها الأولى فيجيب دون أن يُسأل مبشراً وآملاً بما تحمله الأيام من جديد، فليس ما بعد الثورة كما قبلها أبداً: في البدء تماحكنا وتناظرنا وتعاركنا حول شرعية التسمية. أهي ثورة؟ أم انتفاضة؟ أم حراك ثوري؟ أم حرب أهلية؟ أم مؤامرة كونية؟ إلى ما هنالك من تسميات أطلقها بعضنا، ونحن منهم، تأسيساً على إرادوية تمتنع عن إسقاط المشتهى على أحداث لا تشي بحضوره، وأطلقها بعضنا الآخر تبخيساً لفعل تغيير مذهل لم يدخل ضمن تخوم خيالاته وتصوّراته، وأطلقها بعضنا الثالث تهرّباً من ضريبة ما كان لها إلا أن تُستحق طال الزمان أو قصر، وأطلقها آخر رابع تخوّفاً من اهتزاز بنية نفعية تشرنق

فيها وبات كل من يشير إليها بالنقد خائناً وعميلاً و«برغياً» في آلة المؤامرة المحاكة على وطن تقزّم حتى تطابق مع جسد نظام مشوّه خارج التاريخ... تعددت الأحكام والواقع واحد. والواقع هو أن ما كان انتهى، وأن شيئاً جديدا آتٍ لا محالة».

ويبقى حسان عباس ابن واقعه، ليس حالماً، وليس منفصلاً على الاطلاق عما شهدته البلاد من دمار وخراب على مستوى الحجر والبشر، ومن يقرأه يدرك جيداً، أن الرجل، يتقن قراءة الأحداث، ويدرك أكثر كنه هذا النظام وشروره، والتزامه مع مؤيده بشعارات (الأسد أو لا أحد، الأسد أو نحرق البلد) لكنه في ذات الوقت، يؤكد جازماً، أن ما كان يخيف السوريين، انتهى وإلى الأبد، فلم يعد السوري يعنيه المعتقل ولا الموت، ولا الخسارات بعد أن خرج كاسراً حاجز الصمت مطالباً بالحرية: «انتهت حقبة جعلت من السوريين كائنات خائفة ترتجف إن حلمت بحرية. انتهى زمن تختزل فيه مواطنية المواطن إلى التصفيق والرقص والتهريج احتفاءً بشعاراتٍ مقعّرة، فُرّغت من كل محتوى، وغدت إشارة حسّية لإطلاق منعكس الثغاء الجمعي الجدير بقطيع. انتهى عهد الفرجة، حيث بات المواطن متفرّجاً على الفساد باسم القانون، وعلى التسلّط باسم الدستور، وعلى القمع باسم حماية الأمن، وعلى الخراب باسم التطوير والتحديث».

ويختم ذات المقال بسطور، يصر فيها على ملامسة الفرح عامداً متعمداً، ولا شيء غيره برغم القهر والمأساة التي كانت، وما تزال تخيم على الجميع، رغم شعور العجز

الطاغي، لكنك كقارئ، لن تستطيع إلا أن تلتمس حسن التفاؤل والفرح في خاتمة تلك المقالة: «سمّوها ما شئتم، انتقدوها كما أحببتم، اخدعوها، راودوها، تحايلوا عليها، احفروا الأرض تحت أقدامها، لوّنوها، العنوها، افعلوا ما شئتم... فهي، وبمحاكاة لما قاله غاليليو غاليليه لمرهبيه: ومع ذلك فهي تثور. هي باقية، وهي أصلاً لم تبدأ، إلا لتبقى حتى تصل إلى ما يريده أهلها: حياة كريمة بلا ظلم ولا ظلامية. سورية تدخل عامها الرابع ثورة.. كل عام وأنت بخير يا وطني».

ويستمر حسان عباس من خلال مقالاته بالتعبير عن مواقفه الواضحة تجاه الثورة السورية، التي كانت حلم السوريين كلهم، فيربط بين الثورة والحب ليعتبر الاثنين من أسمى المشاعر التي يمكن أن يشعر بها الإنسان: «بين الحب والثورة قواسم مشتركة، منها أن كليهما ينهض على توقٍ لتجاوز حالٍ قائم إلى حالٍ مُشتهى. الحب، أيا كانت طبيعته، طاقة جوّانية، تشع من إنسان، وتصبو إلى تماهٍ في آخر، أو حاجة لجوجة لا تنصرف، حتى تجد إشباعها في الآخر. والثورة، أياً كانت طبيعتها، خروج على وضع لم يعد مقبولاً، وفعلٌ يهدف إلى خلق وضع آخر».

في تلك المرحلة يستشعر عباس التغيرات الطارئة على مسيرة الثورة، التي بدأت سلمية، وكيف تحولت حاضنتها الأولى إلى حاضنة أخرى لفصائل متشددة، اتخذت من الدين سلعة، وأساءت للثورة ولم تخدمها: «تحوّل المناخ الحاضن

لقصص الحب، لم تعد الحرية على درجة الألق ذاته. في داريا، التي كانت جوهرة الثورة السلمية وزهرتها المتفتحة، خرجت جماعة سلفية ببيان يدعو «الحرائر» إلى الامتناع عن المشاركة في المظاهرات لأنهن بمشاركتهن الرجال يستجلبن غواية الشيطان. تقول ناشطة في إحدى بلدات الغوطة على صفحتها على الفيسبوك: «تحولك يذهلني، تشيح بوجهك عني حين تطلب مني أن ألزم البيت وقبل سنة كنت تختلق الذرائع لتلمس يدي في المظاهرة؟».

وهنا يظهر الحزن جلياً في حروفه، لكنه يبقى مصراً على رؤية الحب المختبئ في روح الثورة التي اعتنقها: «خضعت الثورة لتحولات عميقة، تهدد بأخطار جدية عليها وعلى سورية. لكن، وحتى في هذا التحول، تبقى الثورة شبيهة بالحب، فهو أيضا «...أعزكم الله، أوله هزل وآخره جِد» كما ينقل حسان عباس عن ابن حزم قوله!

حسان عباس ونظرية الرأرأة

إبراهيم اليوسف
شاعر وصحفي سوري كردي

استطاعت الثورة السورية، أن تحول معارفنا النظرية التي طالما تعاملنا معها على أسس معرفية، إلى واقع معاش، ومنها ما يخص الاستبداد، والدكتاتورية، والظلم، والعنف. بمعنى أن الثورة أزالت المسافة الكامنة بين النظرية والتطبيق، إذ أن ما ظللنا نتناوله عبر ما يصلنا من أوعية معرفية أو ثقافية، في العقود الأكثر ظلامية، ما مر منها، وما يزال يخيم على حياتنا في أبشع صورها، مستمراً من وصول حزب البعث للسلطة، وإنتاجه أسوأ انماط للاستبداد والطغيان، سعت فيه آلة النظام إلى كمِّ الأفواه، ومواجهة أي رأي مختلف، أو أي موقف لا يندرج في خدمة النظام على أنه معاد، وتمت تربية - جيش - من العيون والمخبرين الذين انحصرت مهمتهم في مراقبة سلوك الناس، وحركاتهم، وسكناتهم، وأقوالهم، بل محاسبة كثيرين على مبدأ المظنَّة، مما رسَّخ بنيان هذه الآلة الرَّهيبة، التي راحت تحاسب البعض حتى على رؤيا في- منام - وهذه واقعة أعرف - شخصياً - من خلالها من راح ضحية تقرير بعض المخبرين بحق مثقف، وكان معلماً في مدرسة، فأبعد عن مكان عمله، بعد سلسلة من التحقيقات[2].

أمام هذه الحالة، فإن نخبة من المثقفين السوريين، لم يستسلموا البتة، بل راحوا يمررون ما أمكن من مواقف تصدع وتهز عرش آلة الرعب، سواء أكان ذلك عبر أعمال أدبية وابداعية فنية، أو عبر مقالات، أو لقاءات، وهكذا بالنسبة إلى مثلهم من الناشطين، أصحاب المواقف، لنجد، في كل مرة، من يقول: لا، لهذا النظام، الأرعن، الذي ارتدى لباس الديمقراطية، وتحول إلى محض آلة طغيان ورعب، وكان مصير المنتمين إلى هذا الأنموذج الشجاع من المثقفين زجهم في المعتقلات والسجون، والتضييق على حريتهم، وملاحقتهم، بل والحرب على لقمة أطفالهم، بل الحرب عليهم معاً!

لقد استطاع المثقف السوري، خلال نصف القرن الماضي، ولاسيما في العقد الأخير منه – تحديداً – اكتساب دروس ميدانية عميقة، كنتاج لسلوك المستبد – بكسر الباء – بحق المستبد به، أو من يقع على عاتقه الحيف، لهذا فقد نشأت لدى عوام السوريين ثقافة خاصة، بهذا الصدد، وإن راحت نخبة ما تنظر لها، إلا أن الجمهور الأكبر ذاته، كان على علم بتفاصيل ما كان يجري لأن روحه كانت مختبر تجربة القمع، ولهذا فإننا وجدنا بعض مفكرينا وكتابنا، قد استطاعوا اكتشاف ظواهر جديدة، يمكن تصنيفها بقراءات السوري لواقعه، تنظيرياً، بما يسجل له خصوصيته وتمايزه عما اكتشف، ووثق ونظر له، في مختبرات إنتلجنسيا الإنسانية!؟

حسان عباس والكتابة عن الثورة:

لا أتذكر أنني التقيت الدكتور حسان عباس، من قبل، وجهاً لوجه، إلا أنني أحد الذين قرأوا بعض ما كتبه، وعرفوا عنه أشياء، ناهيك عما تردد عنه، على ألسنة من عرفوه عن قرب لاسيما الصديق الكاتب فايز سارة، مما شكل لدي صورة، تكاد تكون كاملة عن مثقف وصاحب موقف اسمه معروف، وقد قرأت ما وقع بين يدي مما كتبه وبينها مقالات نشرت هنا وهناك، وحدث أن اتفقت واختلفت -أحياناً- مع بعض طروحاته، فيما يخص بعض المصطلحات الواردة في كتاباته، لاسيما تلك التي تتعلق بالموقف من النظام الدكتاتوري في بلدنا، وقد كان أحد من شخصوه ودقق في بنيته، وشخصوا جسد الثورة ايضاً من خلال رؤى جريئة، ناهيك عن توصيفه الدقيق للإرهاب المستقدم، أو «المنبعث» محلياً، نتيجة ظروف محددة، بعد أن واتته الفرصة، في ظل فوضى الحرب المنظمة، والمخطط لها.

في هذه الشهادة التي أكتبها عن المثقف د. حسان، تحضرني عناوين وآراء عديدة قرأتها له، فكانت من عداد ما يعلق في الذاكرة، وكثير منها جديد في فكرته ومضمونه، بحيث تميز نتاجه عن سيل هادر من كتابات، توالت في العشر سنوات الأخيرة كالفطر، سواء تلك التي تناصر الثورة أو التي تناوئها، فكانت كتاباته تحمل خصوصياتها، دون أن تكون مكرَّرة عما قيل، أو ما درج على الألسن مشافهة، أو جرى تداوله عبر وسائل الإعلام.

ضمن هذا المشهد، بات صعباً حتى على بعض كبار مثقفينا إيجاد موطئ قدم لهم، ليقدموا رؤاهم في منابر عامة، إلا إذا رغبوا بالكتابة عبر بروفايلاتهم - فحسب - لأجل جمهور مفتوح، لا يتفاعل منه إلا قلة قليلة مع أكثر أصحاب الأقلام فحوى وأهمية وفاعلية، إلا أن بعض الأسماء ذات الحضور التاريخي في حمل رسالة أهلها، وذويها، وبلدها، استمرت مواظبة في الحقل الكتابي، بالإضافة إلى حضورها في الحياة اليومية، ويعد د. حسان أحد أبرز الأسماء السورية، كما قدمته مقالاته المؤثرة التي كتبها، وأفلحت في تشخيص الواقع السوري، بل راحت تضع - نظريتها - في رصد معاناته، ومكابدته، ووجعه!

وقوف في صف الضحايا:

من خلال استعراض المقالات الكثيرة التي كتبها د. حسان عباس يبدو انتماؤه للناس، للعوام، للبسطاء، للثورة. بل ويبدو موقفه من آلة الظلم، حتى وإن راح يتدرج في تسميتها منذ ربيع العام 2011 من حدث، إلى انتفاضة، إلى ثورة، وما بينها، بل وراح لاحقاً، ينتقد الثورة، من منظور المثقف، ومن داخلها، لاسيما بعد أن تم تسليحها، وهو خيار دفعت إليه آلة النظام، وقد راح يبطش بالمنتفضين، في ساحات الحرية، منحازاً إلى صناع الملحمة، متضامناً مع أولئك الضحايا الذين نالت منهم آلة القمع: جرحى، وشهداء، وأسرى، ومجهولي مصير.

تناول في سلسلة مقالاته أحوال الضحايا جميعاً، منحازاً إلى كل ما يخصهم من رصد حقوقي أو كتابات أدبية، وتوثيقات فيلمية أو غيرها، ليرى في أول الانتفاضة السلمية – ملحمة كبرى– صنعها السوريون، على امتداد خريطة البلاد، من دون أن يتردد في الاعتراف بأن كل ذلك ساهم في انهيار النظام الذي تماسك، فيما بعد، عبر مفاقمة القمع، أمام مرأى العالم، بعد أن تم إنقاذه وفق– سندات كفالة– دموية خارجية، لاسيما بعد فيتوات دولية، متكررة، صارت غطاء لإراقة مزيد من الدم السوري!

نظريات خارج التصنيف:

لا أدري، ما حدث لي، وأنا أعيد قراءة مقال «الرأرأة السورية»[3]، ومضيت ميالاً نحو اعتباره نواة نظرية جديدة بعيد انتهائي من قراءة المقال، وتعزز اعتقادي ثانية في قراءتي الجديدة المتأخرة له، لأن في هذا النص تشخيصاً لواقع – حال السوريين – تحت سطوة الاستبداد، وسياسة الخوف التي تمَّ زرعها وتعزيزها عبر عقود، تحت ظل نظام دكتاتوري، كتم أنفاس أبناء المكان، ووأد أحلامهم، وحول حيواتهم إلى ما يكاد يشبه العيش في محض ثكنة عسكرية، إذ إن شبح الخوف سيظل مهيمناً على السوري في حله وترحاله، بعد أن يلقن عليه مع أول دروس تربيته، في المنزل، أو المدرسة، أو الشارع، الأمر الذي تعبر عنه «الرأرأة السورية»، والتي مضى حسان عباس في شرحها للقراء في مقال يكاد

ألا ينيف عن الخمسمئة مفردة سوى بقليل، أوجز فيه – في المقال – خلاصة بعض تفاصيل حالة الرعب المهيمنة على السوريين الذين باتوا يتخوفون من الأشباح، من المجهول، لأن آلة الرعب باتت مزروعة في كل مكان، والجميع يشك بالجميع. ويتخوف منه، ويتصوره جلاداً، ورقيباً، وفي هذا إجهاز على أهم رباط بين أبناء البلد، مما ساهم في إطالة عمر كرسي النظام، وجبروته!

في عمق نظرية الرأرأة:

ينطلق د. حسان عباس في استنباطه لمصطلح «الرأرأة» من أحد أمراض البصر، إذ يرى أن للرأرأة نفسها أربعين حالة، بحسب التشخيص الطبي، إلا أنه لا يستغرق طويلاً في حدود هذا المرض العيني، العياني، بل يتخذه معبراً إلى مرض آخر، فإذا كانت الرأرأة «في لغة الطب2» عبارة عن «عَرَضٍ سريري يشير إلى خلل في الأجهزة التي تتحكم بحركة العين، ويعود إلى إصابات مرضية مختلفة. ويتصف هذا العرض بحركة اهتزاز لا إرادية للعين تجعلها تبتعد ببطء عن موضعها المركزي لتعود بسرعة إليه، وهكذا دواليك. وتسبب الرأرأة درجة من الخلل في الرؤية»، إلا أنه يمضي إلى رأرأة أخرى، أشدّ فتكاً، لا تكتفي بهذه الحالة السريرية العابرة التي يمكن علاجها لدى طبيب العيون، لأن هناك رأرأة أخرى يقشعرُّ بدن المرء بسببها وهي «كانت تلاحَظ لدى السوريين في سنوات حكم عائلة الأسد، خصوصاً زمن حكم الأب، حركة لا إرادية

يقومون بها بعيونهم، وغالباً ما كانوا يتابعونها بكامل وجههم، حتى أصبحت كالعادة المكتسبة التي تميزهم عن سائر البشر. وتتميز هذه الحركة بانحراف كرة العين عن محورها لتتجه نحو النوافذ أو الأبواب، في الحيز الذي يجمعهم، فور نطقهم، أو نُطق أحد مُجالِسيهم بكلمة، أو إشارة تنال من القائد أو الحزب أو أجهزة الأمن ومن ينتمي إليها».

إننا هنا، أمام حالة رعب، يكاد يكون فريداً من نوعه. رعب يتحكم بلغة الناس، وحديثهم، إذ ثمة ما هو ممنوع عليهم التكلم به، أو تناوله، أو الحديث عنه، إلا في إطار المديح الملفق، بدءاً من اسم الدكتاتور الأول، وانتهاء باسم أصغر شرطي، ضمن دائرة متكاملة، تشكل جميعها آلة الاستبداد!

الرأرأة في حالتها الحادية والأربعين:

إذا كان د. حسان عباس قد رأى أن للرأرأة أربعين حالة، قد يعاني المصاب بإحداها، أو أكثر من حالة رؤية وهمية أو نحوها، فإنه ليشخص الحالة الحادية والأربعين التي لم يذكرها أحد قبله، ولم يتناولها حتى علم طب العيون وتكاد لا تشبه حالة أحد من المصابين بمرض الرأرأة سوى حالة من هو في ظل وطأة حكم ربيب آلة القهر، السفاح السوري، وطبيب العيون الذي لا تتجاوز تجربته الثقافية حتى مع اختصاصه الألفباء التي وضعها الكحَّالة البدائي قبل قرون

في التراث، ولعله لا يفقه ما الرأرأة أصلاً. هذه الحالة الحادية والأربعون ولدت في ظل حكم باطش أسسه الحزب الحاكم، وكان ذروة نتاج النظام الحاكم الذي أسس لحالة طغيان دفع ثمنها السوريون جميعهم؛ موالاةً اضطرارية بسبب مصالحها أو انتهازيتها أو جبنها من جهة؛ ومعارضة مشرذمة منقسمة على ذاتها بسبب اقتصاديات الحرب، وتمويلات سفك الدم من جهة أخرى. هذه النظرية وإن بدت جد بسيطة في طرحها، إلا إنها تقدم صورة طبق الأصل عن حالة السوري المقموع، رصدها الكاتب بلغة أدبية، تتمايز عن لغة الكاتب الصحفي، كما أنها تقدم ما هو فكري بلغة، لا تصعب على مستسيغ لغة الصحافة، وفي هذا ما يميز لغة كاتبنا التي يمكن تناولها في مبحث خاص!!

سورية حسان عباس الموسيقية

بدر الدين عرودكي
كاتب ومترجم

لكي يقول سورية التاريخية وسورية اليوم معاً، اختار حسان عباس، أن يضع كتاباً حول موضوع يقولها بمنتهى البلاغة: **الموسيقى التقليدية في سوريا**، وهو ما صار عنوان ومضمون كتابه الذي صدر عن منظمة اليونسكو قبل ما يقارب السنتين، في إطار مشروعها الذي يستهدف «الصون العاجل للتراث الثقافي السوري» تحت وطأة المأساة الكبرى التي تعيشها سورية والسوريون، والتي تعصف ببلادهم وبتراثهم المادي واللامادي. وهو موضوع استثنائي، عابر للأزمنة، وللأمكنة، وللأنظمة السياسية، وللأيديولوجيات، بما أنه التعبير الأسمى عن أعمق المشاعر الإنسانية روحاً ومادة. موضوع تفاعلي أياً كانت طبيعته، وعفوي لا يحتاج إلى اعتراف منظومة أو مؤسسة بما أنه يمس شغاف القلوب، البصيرة منها بوجه خاص: ذلك أنه، يؤثِّرُ ويتأثر، يُغْني ويَغْتَني، وينتهي إلى أن يجمع، ولا يفرِّق.

والحق أنه لم يكن ثمة أجمل من هذا الخيار للتعبير عن سمة جوهرية، بل ومركزية في التكوين التاريخي والإنساني

لبلاد الشام. هذه المنطقة الجغرافية التي عرفها العالم بوصفها مسقط رأس حضاراته على اختلافها وفي مقدمتها أول أبجدية في الكتابة، بل وكذلك أول مدونة موسيقية عرفتها الإنسانية حتى اليوم، بلاد الشام، أو سوريا الطبيعية التي باتت سورية الحالية، تقولها بقدر ما تمثلها: سمة التعددية الثقافية التي تجلت عبر مختلف المراحل التاريخية سياسيًا من خلال الدول – المدن قبل آلاف السنين، أو في طبيعة تكوين الإمبراطوريات ذاتها، الطارئة عليها أو المنطلقة منها، وكذلك من خلال الشعوب العديدة التي لجأت إليها أو سكنتها في مراحل مختلفة من التاريخ القديم والحديث، فصارت الثقافة والتقاليد، التي حملوها معهم بعد تفاعلها مع التقاليد والثقافة المحلية جزءاً من الثقافة السورية الأوسع والأشمل.

كثيرة هي الكتب أو الدراسات، التي تناولت الموسيقى في سورية، إلا أنَّ معظمها كان يتناول إما هذا الضرب أو ذاك من الموسيقى الإثنية أو الشعبية، أو كان أقرب إلى التوثيق التاريخي للموسيقيين، من ملحنين أو عازفين، أو مغنيات ومغنين. ولعل أكثرها شمولاً في هذا المجال الكتاب الذي وضعه صميم الشريف والذي يقول عنوانُهُ مضمونَه: الموسيقا في سورية، أعلام وتاريخ، الذي صدر في عام 1991، وأعيدت طباعته في عام 2011. سوى أن كتاب حسان عباس كان يستهدف غرضاً آخراً، يختلف كلياً عن محض أغراض التوثيق أو السير الذاتية أو الاقتصار على هذا النوع أو ذاك من الموسيقى، التي قدمتها الكتابات الأخرى.

نحن هنا أمام عرضٍ للموسيقى في ذاتها، التي عرفتها سورية والتغيرات، التي طرأت على ممارسات بعض ضروب منها، سواء من خلال تجلياتها المختلفة كالموسيقى الدينية أو الموسيقى الإثنية، أو في ارتباطها مع الغناء في أجناسه العديدة، أو مع الحياة الاجتماعية، أو مع العمل، أو مع ضروب الرقص التي عرفتها سورية، وأخيراً الآلات الموسيقية، التي كانت تؤديها وطرق صناعتها. ولأنه عرضٌ مفصّلٌ تاريخي وتحليلي وتوثيقي في آن معاً. فإنه بات يؤلف سجلًّا غير مسبوق لمجمل أنواع وقوالب الموسيقى والغناء، التي عرفتها سورية خلال تاريخها الطويل.

هذا التنوع، ولاسيما في المجال الإثني، يلتقي ويمتزج في مواطن كثيرة مع المجال الديني، ذلك أن «الموسيقى الدينية المسيحية للسريان – على سبيل المثال – ليست موسيقى دينية فقط. بل هي موسيقى إثنية أولًا، لأنها موسيقى الشعب الآرامي الذي كان يسكن في سوريا الكبرى (سورية ولبنان وفلسطين والأردن) وهي موسيقى دينية مسيحية سريانية، ثانياً». ذلك يعني أن الموسيقى في سورية، لم تكن على مرِّ العصور، تتماهى مع تاريخها وتاريخ السوريين منذ مئات السنين فحسب. بل كانت أيضاً ولا تزال صورة، تقولهم بما أنها طبق الأصل عنهم.

سنرى أن حسان عباس، قد راعى في كتابه تقسيم فصوله حسب ضروب الموسيقى الدينية، مسيحية وإسلامية، وكذلك حسب ضروب الموسيقى الإثنية، عربية وكردية وإيزيدية

وشركسية وأرمنية. على أننا سرعان ما سنكتشف، أن الإثني في الموسيقى، لا يعني – في سورية خصوصاً وفي المشرق العربي عموماً – بأي حال انتماءً إلى عرق أو جنس محدد أياً كان. إذ سرعان ما يردّنا الحديث عن الموسيقى العربية على سبيل المثال إلى الأصول التي نهلت منها مقوّماتها، والتي تمتد في عمق التاريخ السوري، سواء على صعيد الآلات الموسيقية المستخدمة أو على صعيد طبيعة الألحان التي تطورت واغتنت على مر العصور في الكنائس مثلما تنوعت في مختلف ميادين الحياة الاجتماعية. يسري ذلك أيضًا على الموسيقى السريانية، التي أثرت في الموسيقى البيزنطية مثلما تأثرت بها من دون أن تتماهى أي منهما في الأخرى. ولعل الأناشيد الدينية الإسلامية، من مدائح وموشحات نبوية، سواء اقتصرت في أدائها على الصوت بمرافقة آلة موسيقية كالطبل أو الدف لتوقيع الإيقاع أم لم تقتصر، كانت قد نهلت من التراث المحلي في حلب أو في دمشق، ولاسيما التراتيل الكنسية الجماعية. لا بل إن تلاوة القرآن خلال مختلف المناسبات الدينية أو الاجتماعية، اعتمدت مقامات الموسيقى الشرقية (نهاوند، صبا، حجاز) في أدائها، وكانت جودتها تتوقف على قدرة القراء ومواهبهم، شأن أداء الأذان للصلاة الذي كان عدد كبير من المؤذنين الموهوبين، يتفنّنون في استخدام المقامات الموسيقية لأدائه، ومنهم مؤذنو الجامع الأموي بدمشق الذين انفردوا بأداء الأذان الجماعي.

على أن تنوع الموسيقى في سورية، لا يقتصر بطبيعة

الحال على المجاليْن الديني أو الإثني، وفيما وراءهما. إنما يتجلى التنوع في أبلغ معانيه وأكثرها ثراء عبر استعراض قوالب الغناء الشعبي وتجلياته في مختلف المناطق السورية شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً. ولا شك أن قوالب الغناء التسعة عشر التي يستعرضها الكتاب، هي التي تعبر عن أو تقول روح السوريين كالموال، والعتابا، والميجانا، والزجل، والنايل، والسويحلي، والدلعونا، والروزانا، وياحنيّنا، وأبو الزلف ومولیا، والهويدلي، وعاللا لا ولالا ولالا، والهوليّة، والجوفية، والحداء، والسحجة أو الدحّة، والزلغوطة والزغرودة، والفراقيات، والغناء الجزراوي.

تنتشر هذه القوالب في مختلف المناطق السورية، التي يختص بعضها بهذا القالب أو ذاك. لكنها تجسِّد عمق فن بات صنو السوريين وثقافتهم في الثراء وفي التنوع، وتعبيره البليغ عنهم. وعلى أن هذا التنوع قد تعايش عبر العصور وحتى منتصف القرن العشرين مع تنوع الأديان والطوائف والمعتقدات والإثنيات، إلا أنه، في جانب منه، لم يتمكن من الحفاظ على لون كان السوريون يحرصون عليه، وهو الموال السياسي الذي كان - كما يكتب حسان عباس - «شائعاً جداً في بدايات ومنتصف القرن العشرين، وواكب الأحداث الخطيرة التي عرفتها سورية في تلك الأوقات، وخاصة في المرحلة الديمقراطية (1954-1958). لكن في العقود الأخيرة، بدأ يتراجع بقوة، وازداد تراجعه بدءاً من السبعينيات مع عملية سحب السياسة من الشارع»[4]. وحدها خلال

العصور كلها، عقود الاستبداد الأخيرة إذن هي التي قامت بالاعتداء، بين ما لا يحصى من اعتداءاتها، على قريحة السوريين وعلى لون من ألوان إبداعهم الحر.

ذلك أن هذه الموسيقى بأنواعها وقوالبها المختلفة، ترافق السوريين في ميادين حياتهم اليومية كلها، الاجتماعية والدينية، مثلما تتواجد في احتفالاتهم الخاصة والعامة. وكما يفصِّلُ حسان عباس في كتابه، من الكنيسة والمسجد والبيت حتى الشوارع والأسواق، نرى تجسيد الموسيقى، آلة أو صوتاً، في بلد تعايشت فيه أديان السوريين وطوائفهم ومذاهبهم وإثنياتهم على اختلافها، قبل أن يخطف الاستبداد هذا التعايش منهم، وقبل أن يعمل على تدمير بلدهم وتراثهم المادي وغير المادي.

من هنا أهمية هذا الكتاب الذي شارك حسان عباس فيه عدد من الموسيقيين السوريين الذين – كما كتب – استجابوا لطلبه «بوضع دراساتهم الفريدة التي أغنت هذا العمل، مثل خالد الجرماني الذي كتب عن الموسيقى العربية، وغني ميرزو الذي كتب عن الموسيقى الكردية والموسيقى الإيزيدية، وفواز باقر الذي كتب عن صناعة الآلات الموسيقية في سورية، ونوري إسكندر الذي كتب عن الموسيقى السريانية، بالإضافة إلى المصور الفوتوغرافي هشام زعويط الذي أغنت صوره الكتاب»[5].

الفصل الثاني

من كتابات حسان عباس في الحال السوري

جدران الوهم

يرفع الإنسان جدراناً منذ خرج من كهفه الطبيعي ليخطو خطوته الأولى على طريق الحضارة. لكن من الجدران ما يصبح سجناً لمن رأى فيها أسواراً تحميه، أو قبراً لمن اعتقد أنها تمنحه أماناً كان يرتجيه. تلكم هي جدران الوهم.

من الممكن أن تختلف وظيفة الجدار حسب الزاوية التي يُنظر إليه منها. فقد يكون جداراً يمنع الخارج، الـ (هناك)، من العبور إلى الداخل، الـ (هنا)، كما يمكنه أن يكون جداراً يمنع الداخل، الـ (هنا)، من الفرار إلى الخارج، الـ (هناك). يمثل سور الصين العظيم النموذج الأكثر إبهاراً، ويمثل جدار الفصل العنصري النموذج الأكثر قبحاً لجدران الحالة الأولى؛ بينما يمثّل جدار برلين النموذج الأكثر شهرة، وتمثل أسوار السجون المثال الأكثر انتشاراً لجدران الحالة الثانية. لكن في الحالتين يبقى الجدار سيفاً يقطع التواصل بين الناس، وسدّاً يغلق الفضاء.

ولئن كانت الجدران والأسوار حقيقة مادّية ملموسة، وثقيلة، فثمّة جدران غير مرئيّة حتى نظن أنها بنات وهمٍ،

لكنها لا تقلّ فعّالية وقوة عن جدران من الفولاذ. قد نجد هذه الجدران في الطبيعة كتلك التي يحددها برائحته الخاصة ذكر بعض أصناف الحيوانات لتمنع اقتراب ذكور أخرى من «بيت حريمه». غير أن المجتمعات البشرية ملأى بها. منها ما يرفعه الأفراد لمرض أو لمزاج خاصّ بهم، ومنها ما تنصبه الجماعات لإيمان أو عقيدة أو خوف.

التقيت مؤخّراً شابّة قادمة من بلدة وسط سورية معروفة بجمال طبيعتها، وبانفتاح أهلها واختلاطهم، رغم اختلافاتهم المذهبية بفعل انتمائهم إلى أربع طوائف. وكان في البلدة طريق يدعى «الكورنيش» يعطي صورة مصغّرة عن مجتمع البلد، فعند أصيل كل يوم دافئ، تخرج صبايا البلدة وشبابها للتنزه فيه ناشدين الحياة، غير عابئين بما يحملونه من انتماءات أو ثقافات أو أحلام. سألت الشابّة عن أحوال الحياة في البلدة، وعن «المشوار» على «الكورنيش»، فنظرتْ إليّ بحزن وقالت: منذ سنة وأكثر ما عدنا نذهب إلى هناك. سألتها لماذا؟ قالت: لأنه يقع في حيّهم فنحن نتجنّب الذهاب عندهم وهم لا يأتون عندنا، طبعاً الضمائر المتصلة (هم) و(نا) تعود إلى الطائفتين الكبريين في البلدة.

ومن مدينة ساحلية تنقسم أحياؤها إلى مجموعة شمالية يقطنها بشكل خاصّ القادمون من القرى الجبليّة الساحلية، ومجموعة جنوبية يقطنها بشكل خاص أهل المدينة الأصليّون، هتف لي صديق ليخبرني أن البحر صار بحرين وأن «الكورنيش البحري» انقسم إلى نصفين، كلّ نصف

يتبع مجموعة أحيائه، أي لأتباع «طائفته». بل وأضاف أنّ السوق التاريخيّ الموجود في المدينة القديمة لم يعد على حيويته الممتدّة إلى قرون خلت، لأن الوافدين من القرى فتحوا سوقاً خاصة بهم في أحيائهم، وأن عدداً من المقاهي والمطاعم ظهرت في شمال المدينة تستقبل الزبائن الذين هجروا الأماكن العامة في المدينة القديمة، لأنها تقع في أحياء (الآخرين).

لا جدران في هذين المثالين سوى جدران الوهم التي يرفعها الخوف. الخوف من الآخر. وهو خوفٌ استنبته فشلُ النظام في إدارة التنوّع في البلاد، ورعته خياراتُه السيّئة في إدارة الأزمة، وجاءت القوى الجهادية الإسلامية وخطاباتها التكفيرية لتزيد في الطين بلّة، ولتُنضج الخوف وتثمره. لا يمرّ يوم إلا وتنتشرُ الأخبار عن إجراء جديد، أو مجزرة جديدة، أو غزوة جديدة تدفع الناس إلى وضع حجر جديد في جدران الخوف، فيرفعونها أكثر فأكثر عساها تحميهم من خطر يتصوّرون قدومه. لكنهم، بفعلهم هذا، يسجنون أنفسهم أيضاً في «غيتويات» محكومة بالاختناق والموت. ففي بلاد شرق المتوسط، وبسبب التاريخ السحيق للاختلاف والتنوّع والتشابك، لا يمكن للمكوّنات المجتمعية البقاء إلا إذا انفتحت على بعضها البعض، وكلّ محاولة لخنق الآخر ليست في الحقيقة سوى عملية انتحار.

المدن
2013/2/21

ثم يأتي «العبث»

مرت الأحداث التي عرفتها سورية منذ آذار 2011 عبر منعرجات ومنعطفات عديدة نقلت البلاد من حالة الاستبداد السياسي الشمولي الذي تمارسه دولة مستقرة بقوة الأمن والقمع، إلى حالة تنذر باستبداد ثقافي شامل في ظل دولة فاشلة يتحكم بها أمراء حرب ناشئون، من جهة، وبقايا مافيات موروثة، من جهة أخرى.

تشكّل هذه الأحداث مادة فريدة للباحثين الذين درسوها أو سيدرسونها، كل حسب اختصاصه الفكري والعلمي وحسب المناهج والنظريات والأدوات التي سيستثمرها في بحثه. ولا شك أن رفوف المكتبات ستحمل، وهي قد بدأت فعلاً بذلك، كمّاً من الأعمال التي ستعكس بتنوعها الطبيعة المعقدة أصلاً للأحداث.

وإذا ما قامت تلك الأعمال بمقاربة ما يجري في سورية من منظور أدبي يعتمد على نظرية الأجناس، فأغلب الظن أنها ستتوقف عند عتبات ثلاث، تشرِف منها على ثلاث مراحل

متتابعة من الحكاية السورية منذ نقطة بدايتها وحتى ما آلت إليه اليوم.

العتبة الأولى تطلّ على مرحلة يمكن وصفها بالمرحلة الملحمية. تتمثل هذه المرحلة بالشجاعة الفريدة التي أبدتها جموع من السوريين كسرت قمقم الخوف، وقامت بمظاهرات واعتصامات للمطالبة بالحرية، متحدية آلة القتل المسلطة عليها من كل صوب. في المشهد الملحمي تبرز بطولة الأفراد وهم يحققون أعمالاً تُسبغ عليها صفات العظمة والإعجاز، كما تبرز المبالغات الرقمية التي تُضخّم أعداد المشاركين بالفعل الملحمي لتخلق لدى المتلقي مشاعر الإعجاب والانبهار.

في هذه المرحلة تحوّلت الانتفاضة إلى ثورة شعبية لها، من جهة، سماتها المشتركة مع أي ثورة في العالم، ولها، من جهة أخرى، سماتها الخاصة التي فرضتها ظروف سورية والإقليم والشرط التاريخي.

العتبة الثانية هي التي تنظر إلى المرحلة التي يمكن وصفها بالمرحلة التراجيدية. تميّز هذه المرحلة بشكل خاص ديناميكية مأزقية دخلت فيها الثورة، من حيث لا ترغب، في حرب داخلية. في هذه المرحلة تعسكرت الثورة بسبب الخيار الأمني للنظام من جهة، وبسبب انفتاح الأرض السورية أمام وباء التطرف الجهادي من جهة ثانية. في المشهد التراجيدي، يبدو الوضع الذي وُجِد فيه الحراك وضعاً بدون مخرج. وتبدو

الشخصيات المشاركة في الفعل التراجيدي بمثابة أبطال يؤدون واجبهم وهم مرغمون على التعايش مع فكرة الموت المحتمل. في هذا السياق، تظهر الصفات الثلاث التي تميز البطل التراجيدي: الشجاعة والإقدام أولاً، التضحية والفداء كرمى القيم السامية ثانياً، والنقاء الأخلاقي الذي يدفع به إلى خوض حرب يعرف بكامل وعيه أنها حرب بلا مخرج ثالثاً.

العتبة الثالثة هي التي تنفتح على مشهد الخراب والموت والحزن العميم، إنها المرحلة المأساوية بامتياز. في هذه المرحلة تتلاشى البنية التراجيدية التي تضع الفاعلين أمام مصير لا يطمحون إليه لكن لا مفر منه. ويتحول الأفراد إلى شخصيات تقوم بحربها بقناعاتها وبكامل حريتها ووعيها. الموت في هذه المرحلة ليس احتمالاً غير مستحب بل يصبح فعلاً مطلوباً، يصبح قتلاً تسمو دلالته طرداً مع درجة الوحشية المتبعة في تطبيقه. والقيم الأخلاقية تتلاشى لصالح حسابات الحرب. هنا، لا ينتهي مصير بطل المأساة إلى القدر الذي كتبته عليه قوة ذات إرادة خارجة عن إرادته، بل يصبح هو فاعلاً ومشاركاً وصانعاً لقدره وقدر الأرض التي يحارب عليها. ويمثل هذه المرحلة في الواقع تواجد كتائب، موزعة بين أطراف الصراع، مقاتلة مرتزقة استؤجرت، أو دُعيت، أو أُرسلت، أو نُقلت... لا تهم تسمية الفعل بل ما يهم هو الفعل نفسه: كتائب موجودة على أرض الوطن لوضع اللمسات الأخيرة على المأساة.

في مرحلة قادمة، وبعد أن ينجزوا المأساة، سيجلس المتقاتلون منهكين متسولين للحل المجهز سلفاً. عندها، إن بقي لدى بعضهم شيء من الضمير، سينظرون إلى أرض الخراب ويتساءلون في قرارة أنفسهم: لم فعلنا كل ذلك؟ عندها تبدأ مرحلة العبث.

المدن
2013/9/26

مقاربتان بصريتان للنزوح السوري

فيلم «آهات الحرية»

ذكر الموقع الرسمي للمفوضية السامية لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة (يوم الجمعة 14 آذار 2014) أن عدد النازحين قسراً عن منازلهم في سوريا تخطّى التسعة ملايين نازح، أي ما يقارب 40 ٪ من عدد سكان البلاد، مما يجعل من سوريا أكثر دول العالم شهوداً للنزوح القسري. وتقدر نسبة المهجّرين (أي النازحين خارج الحدود) من هؤلاء بحوالي الربع تقريباً.

بعيدا عن الأرقام المخيفة لجيوش النازحين والمهجرين هذه، ثمّة حكايات وقصص عديدةٌ. عددَ الناس المتشاركين بصفات نازح، لاجئ، مهجّر، مطرود... لكل إنسان اسمه، وإحداثياته الخاصة، وحكايته الحميمة. وأخطر ما في دنيا الإعلام المهتم بقضايا المصائب والويلات الجمعية أنه يغيّب هذه الحكايات تحت أنقاض الأرقام وخلف وهم الصورة المثيرة. ومن حين لآخر، تظهر بعض الأعمال التي يبحث

فيها محترفون أو فنانون أو ناشطون عن تلك الحكايات الخاصة ليخرجوها من قيعان الأرقام الرمادية ويضعوها أمام مجاهرهم الفنية كشهادات عن الحقيقة التائهة في تدافع الأحداث.

نتوقف في هذا النص أمام عملين من بين هذه الأعمال: الأول هو «نحنا مو هيك» للمخرجة اللبنانية «كارول منصور» وقد عرض لأول مرة في السابع من شهر تشرين الأول الفائت، في صالة أمبير صوفيل في بيروت، أما الثاني فهو فيلم «آهات الحرية» الذي أغفل اسم مخرجه وأسماء الفريق التقني أثناء عرضه على قناة الجزيرة، وكان عرضه الأول يوم 12 آذار.

الفيلمان يتشاركان في توجههما الإنساني. حيث ينتخب المخرجان نماذج من المهجّرين ممن يمكن القول إنهم ينتمون إلى شرائح متنوعة من ذاك المجموع الهلامي من المجتمع الذي يطلق عليه عادة اسم الطبقة الوسطى. تحدد «منصور» نماذجها من النساء في حين ينتقيها مخرج الفيلم الثاني من الجنسين دون تمييز. لكن النماذج في الفيلمين تشترك في كونها ذوات حكاية. ويكاد مخرجا الفيلمين يتشاركان في الأسئلة المفتاحية ذاتها لفتح أبواب الحكاية: سؤال الماضي/ ما قبل الثورة، وسؤال الخروج، وسؤال الراهن أو المنفى. لكن ثمة اختلافا كبيرا بين الفيلمين في بنيتهما مما يبرز التباين بينهما رغم التماثل، لدرجة التطابق تقريبا، في الموضوع وفي استنطاق الحكاية.

«نحنا مو هيك»

تعتمد «منصور» بنية هندسية صارمة لعملها تتميز أولا بتمركز الأطر المحيطة بالحكاية. فالعمل ينفتح بداية على مقدمة عامة محكية بصوت خارجي ومدعومة بصور فوتوغرافية ثابتة من أرشيف المفوضية السامية لشؤون اللاجئين، ثم تنتقل إلى إطار أصغر لتحكي عن مأساة النزوح السوري مع لقطات عامة عن المخيمات، ثم تنتقل إلى إطار أصغر أيضا تقدم فيه الشخصية صاحبة الحكاية لتستقر أخيرا على الحكاية ذاتها مروية بصوت صاحبتها. وتتميز ثانيا بالتقطيع الزمني لمدة الفيلم إلى خمسة حصص تكاد تتساوى في مددها. كل حصة مهداة إلى واحدة من الشخصيات لتروي فيها قصتها، «دراماها» الخاصة، متكاملة، مما يتيح لها قوة الحضور ويتيح للمشاهد وقتا كافيا لتشبع الحكاية. وتتميز ثالثا باستخدام كاميرا حيادية، باردة، تتلاشى أمام الشخصية حتى تكاد أن تذوب.

أما مخرج «آهات الحرية» فقد اعتمد بنية أكثر قلقاً لفيلمه. حيث لم يضع أي إطار للحكايات، لأن فيلمه هو الحكاية، وما الأشخاص الذين استنطقهم (وكاتب هذا النص واحد منهم) إلا أدوات للفيلم وليس الفيلم أداة لهم كما عند «منصور». الحكاية في الفيلم هي حكاية المنفى. والمنفى حكاية الجميع فلا حاجة لمن يقدّم لها أو يؤطّرها. هكذا ينفتح الفيلم على الكلام وينتهي بالكلام بلا تمهيد أو استخلاص. فالمخرج لا يبحث عن نماذج تعيش حالة المنفى وإنما يبحث عن المنفى

كما يتمثل في الإنسان. والمنفى تشتت، وقلق، واضطراب لذلك جاءت بنية الفيلم مثل ثوب الرقع (باتشوورك) لكل قطعة لونها وحجمها وأصلها، وهي حين تتراصف مع بعضها فلأن المخرج الذي يلهو بها، كطفل يلهو بقطع من نسيج تكوّمت أمامه، أراد لها هذا النسق من المونتاج. أما الكاميرا فهي لعوب هي الأخرى، فتُقدم وتتراجع وتواجه وتخاتل لتثبت وجودها كحكواتي بصري يروي لنا قصة المنفى.

في «نحنا موهيك» الشخصية هي الحكاية، أما في «آهات الحرية» فالمنفى هو الحكاية، وفي الحالتين نجح المخرجان، كل من وجهة نظره، وكل حسب حساسيته، في مقاربتهما البصرية لمأساة النزوح السوري.

المدن
2013/4/3

حرّاس الذاكرة

إلى مازن درويش ورزان زيتونة

قد يبدو صحيحاً أن الحرب «نار تجلو صدأ الشعوب»، وقد يبدو صحيحاً أنها «شرّ لا بدّ منه» لكي تنبعث الأمم من رمادها، لكن ليس صحيحاً أنها هذا فحسب، لأن الحرب هي أيضاً، وقبل كل شيء آخر، موت ودمار وخراب. قد تشقّ الحروب طريقاً لجديد آت، وقد تهيئ لقيامة ما، لكن لا هذه القيامة ولا ذاك الجديد يقدَّر لهما أن يكونا بدون الويلات التي تنثرها الحروب.

الحرب انتهاك للإنسانية وللإنسان، ونخصّ هنا الحرب التي تقوم بين أبناء البلد الواحد سواء أكانت حرباً داخلية (كما هي الحال في سوريا) أم حرباً أهلية. كل ما في الحرب فعلٌ جرمي. وكل من ينخرط فيها، شريك، بهذا القدر أو ذاك، في جريمة. من المفارقة المؤلمة أن الكثير، بل غالبية، أولئك الشركاء هم ضحايا. ليسوا ضحايا وقع عليهم الانتهاك فقُتِلوا أو جُرِحوا أو شوِّهوا فحسب، بل هم ضحايا لأنهم أُرغموا أو اضطروا أو أُجبِروا على المشاركة في القتل والجرح والتشويه. الذين تحولوا إلى أدوات قتل في يد نظام مستبدّ

أحمق هم ضحاياه أولاً، والذين اضطروا لحمل السلاح دفاعاً عن انتفاضة كرامتهم هم ضحايا النظام مرتين: مرة لأنه اضطرهم إلى حمل السلاح ومشاركته في المقتلة ومرّة لأنه قتلهم حقاً، والذين تحولوا إلى مرتزقة وأدوات قتل في يد إرهاب ديني أعمى مموّل هم ضحايا أمراء الحرب وسدنة الجهل والظلامية.

الحرب آلة حمقاء تصَنِّع ضحايا ليقوموا بدورهم بصُنع ضحاياهم لدى الطرف الآخر. وفي الحرب الداخلية، الكلّ هو الآخر. حيث لا منطق يبيح لطرف أن يكون ال(نحن) المطلقة التي تتجسّد فيها روح الوطن فتنال شرعية القتال باسمه.

الحرب الداخلية مصنع للضحايا يديره مجرمون. وهؤلاء الأخيرون قلّما ينالهم العقاب الذي يستحقونه. يُخطَف الناس ويعذّبون ويقتلون بأمر منهم، وهم يقبعون في دشماتهم ومراكز قياداتهم يتابعون على الخرائط الباردة حركة البيادق المرمية في الميدان. فإن انتصر طرف منهم أرّخ لما كان بالشكل الذي يريد، بينما تغيب الضحايا في جبّ النسيان. وتُنسى أسماؤها وأسماء قاتليها.

من هنا كانت فكرة توثيق الانتهاكات في زمن الحرب فكرة عظيمة، لأنها، من جهة، تحفظ للضحايا ذكراهم، ومن جهة أخرى تقيم الحجة على الشركاء في الجرم بدءا من الذي خطط، إلى الذي أعطى الأمر بالتنفيذ، إلى الذي نفّذ. وتكون الانتهاكات المسجّلة وثيقة لا بدّ منها لكل بناء لسيرورة عدالة

انتقالية. من هنا يلد حقد المسؤولين عن الإجرام على النشطاء الحقوقيين، وعلى كل مؤسسة مدنية تعمل في مجال توثيق الانتهاكات. والأمثلة على ما عاناه ويعانيه النشطاء في مجال حقوق الإنسان وتوثيق انتهاكات هذه الحقوق في سوريا لا تعدّ ولا تحصى. ففي بداية الانتفاضة ضد نظام الاستبداد لاحقت الأجهزة الأمنية هؤلاء النشطاء وحبستهم. ومنهم الصحافي مازن درويش، رئيس المركز السوري للإعلام وحرية التعبير، الذي انهى يوم الاثنين 16 كانون الأول، 22 شهراً على وجوده في المعتقل. أما بعد انحراف الثورة وسقوط غالبية المناطق الخارجة عن سلطة النظام تحت سطوة الإرهاب الإسلامي الظلامي فقد عاد الوضع شبيهاً بما كان عليه قبل الانتفاضة، بل وبشكل أكثر بشاعة. لكن هذا لم يمنع النشطاء، رغم كل الصعوبات، من الاستمرار بتوثيق الانتهاكات التي تمارسها القوى المتسلطة الجديدة. وبالطبع لم يرق هذا لأمراء الحرب الملتحين فبدؤوا بعملية كمّ أفواه النشطاء مثل رزان زيتونة ورفاقها الذين تمّ اختطافهم على أيدي «ملثمين».

في سوريا، وبين الاستبداد السياسي الذي يقتل باسم قوّة من الأرض والإرهاب الديني الذي يقتل باسم قوّة من السماء يسقط ضحايا أبرياء يتهدّد النسيان أسماءهم وأشكالهم ولون وجوههم. لكنهم لن يُنسوا مادام هناك ناشطون وناشطات يوثقون للانتهاكات ويقفون حرّاساً للذاكرة.

المدن
2013/12/21

تحوّلات في ثقافة الخوف

سنتا الثورة هما سنتان من الحَراك الاجتماعي اليومي المستمر. حَراك هادر، كأنهار الربيع، لا يهدأ ماؤه ليستريح، بل ليستجمع قواه لدفق أقوى. لقد أتاح طول مدة الحراك، تشكّل منظومات مختلفة من العلاقات بين الناس، ترسّخت في أكثر من مكان، وتحوّلت إلى قوى لا مادية، فاعلة ومؤثّرة على جماعات دون أخرى، أو على المجتمع ككل. أي، بمعنى آخر، إلى ثقافات.

بعض هذه الثقافات كان راسخاً في المجتمع، وبعضها الآخر، كان كامناً فيه ينتظر انثقاب الغشاء الساتر لينفجر وينثر مخزونه، وبعضها الثالث وجد في الحراك وديناميكياته فرصة لينغرس في تربة، تبيّن أنها أكثر خصوبة لتلقيه مما كان يُظنُ أو يشتهى.

في النمط الأول من هذه الثقافات، تبرز ثقافة الخوف كثقافة راسخة في حياة السوريين منذ عقود طويلة. ثقافة الخوف هي الملاط الذي تستخدمه أجهزة القمع لتثبيت

العلاقات بين العناصر في بنية النظام الاستبدادي، وتأبيدها كشرط من شروط وجوده واستدامته.

يعرف القاصي والداني، أن الخوف بات ثقافة حقيقية لها قواعدها السارية في الحياة اليومية، وفي شكل التعامل مع السلطة ورموزها وممثليها. وبلغت هذه الثقافة مستوى الهيمنة بفعل آليات التسلط والرقابة والوشاية والتعسف... الخ، التي ارتبطت جميعها بأجهزة القمع السلطوية القوية العديدة. لقد استبطن المواطنون الخوف حتى سكن في وجدان كلٍّ مواطن منهم شرطي غير مرئي، يهديه إلى درب الستر والسلامة.

مع ربيع دمشق، بدأت تباشير خلخلة تلك الثقافة مع ظهور المنتديات، ومع البيانات وأخطرها، لأسبقيته على غيره، بيان ال99. وحاولت الأجهزة استعادة الهيمنة لكن الوتد كان قد انغرس، وساهمت وسائل الاتصال الجديدة بتحويل أشكال عديدة من آليات الرقابة إلى أضحوكة، لكن الخوف بقي، رغم ذلك، صفة مستقرة في المجتمع. إلى أن انطلق الحراك قبل سنتين، وخرجت المظاهرات كتحدٍ سافر للأحرف الأولى في أبجدية القمع. وشيئا فشيئا، قويت شكيمة المواطنين، وتنامت طرداً مع تنامي العنف السلطوي ووحشيته. لم يحسن النظام قراءة الصور، التي كانت تنقلها له كاميراته وعيون عسسه، أو ربما كانت الكاميرات مصابة هي أيضا بجرثومة الخوف.

لم ير الأمل الذي كان يلمع في عيون المتظاهرين،

لم ير الفرح الطفولي، يخفق في أجسادهم، لم ير عضلات وجوههم المشدودة تصميماً وإصراراً، لم يسمع نبض قلوبهم يضبط أغانيهم. لم يفهم ببساطة أن عنصر الأمن القابع في صدورهم، كان يضمر ويضمر، وأن شجاعة السوريين تتحول إلى أمثولة قل نظيرها في تاريخ الشعوب. لكنه كان يشعر بقوة أنه بات مثالا عن أبشع أنظمة الكون، بينما يتحول شعبه إلى أجمل شعوبه.

هنا كان لا بد للنظام من أن يستعيد ثقافة الخوف، وكان ذلك يتطلّب استحداث آليات جديدة غير تلك التي هشّمتها الثورة. القمع المنكشف، العاري، المطلق. كان أول الآليات الجديدة. أساليب جديدة، لا يعرفها قاموس العنف ظهرت، وعُمّمت في صور «مسرّبة» تقول إن الخيال الجهنمي، يبقى قاصراً أمام حقيقة جهنم(نا) الخاصة.

ثم جاءت فزاعة العصابات الإرهابية المسلحة. جاءت باكرة جدا، واستُخدمت بكثافة. بل أصبحت مادة للمطرقة الإعلامية الرسمية، لترتعد أوصال المحايدين، والمترددين، والمتفرجين، وأهل الحاضنات الاجتماعية من كل الأطياف، وأهل الطوائف الصغيرة... كانت الفزّاعة تعمل بحرية، تثير ريبة المراقبين، وتطرح أسئلة على المنطق، لا يقدر المنطق على حلها، إلا إذا أقام رابطاً بينها وبين خطاب التفزيع.

لكن، إن كان ذئب الحكاية يأتي حين نذكره، فإن ذئب الواقع كان هنا حقاً. كان يُسمّن ويقوّى في حقول مجاورة،

وهي حقول متربصة بخِممة البلاد وطيورها. وهاهو يرخي بظله فوق الأرض والناس. وها هي الأخبار، تتواتر من المناطق الواقعة تحت سيطرته، لتؤسس لثقافة الخوف من جديد، الخوف من استبداد قادم، لن يُحسَدَ الشعب عليه.

لكن يبقى الأمل بأن شعباً، كسر خوفاً متراكماً من عقود، لن يصعب عليه صدّ خوف، تتراءى طلائعه برايتها السوداء.

المدن

2013/3/17

المجتمع المدني المقبل

يُحدِث الصراع الدائر في سوريا تغييراتٍ كبيرةً في المجتمع المدني فيها. وهي، أياً كان الشكل الذي ستنتهي إليه الأمور، تؤسس لأشكال جديدة من العمل المدني، ولآليات تنسجم مع الحاجات التي سيفرزها شكل الدولة المقبلة، وطبيعة العلاقات التي ستحدد حال المواطنة، وهي حال لم يسبق لسوريا أن عرفتها في تاريخها المعاصر أو الحديث.

في عودة سريعة لتاريخ المجتمع المدني السوري منذ بدايات النظام الحالي، أي من مطالع السبعينيات، نستطيع القول إنه قد مرّ بثلاث حِقبات أساسية: الحقبة الأولى (1970–2000)، الحقبة الثانية (2000–2011)، أما الحقبة الثالثة فهي التي بدأت مع انطلاقة انتفاضة الكرامة ولا تزال مستمرة باستمرار الوضع القائم.

عندما استولى حزب البعث على السلطة في انقلاب 1963 لم يكن المجتمع السوري خاوياً، بل كان لا يزال موّاراً بالحياة المدنية المتمثلة بالجمعيات والنقابات والصحافة الحرة والأحزاب السياسية (إذا اتفقنا على اعتبارها جزءاً

من الحيز المدني ما دامت لم تصل إلى السلطة بعد). في تلك اللحظة بدأت إرهاصات الاستبداد مع إجراءات التفرّد بالسلطة المتمثلة، بشكل خاص، بالمراسيم الصادرة عن مجلس قيادة الثورة صبيحة يوم الثامن من آذار.

في العام 1970، وبعيد إحكام قبضته على مقاليد الحكم، شرع الأسد الأب بوضع أسس نظام الاستبداد الذي وجد التعبير النموذجي له في المادة الثامنة، السيئة الصيت، من الدستور. في هذه الحِقبة أصبحت المؤسسات المدنية من منظمات واتحادات ونقابات... بل وحتى الأندية الرياضية، جزءاً حيوياً من «المجتمع المضاد»، وتحوّلت من أجهزة وسيطة تحمي المجتمع من عسف السلطة إلى أجهزة وسيطة تنقل ذاك العسف إلى المجتمع.

مع تولّي الأسد الابن للسلطة، استبشر الناس خيراً بالوعود الإصلاحية التي أشاعتها أجهزة النظام الدعائية والاستخباراتية في البلاد. غير أن عشر سنوات في السلطة لم تشهد على مستوى المجتمع المدني الإصلاح المنشود وإنما شهدت احتيالاً معلناً كانت عناوينه الرئيسة تشكيل «منظمات حكومية غير حكومية» أو ما يعرف عالمياً باسم (الغونغوز Go,Ngo's)، وهي منظمات تعمل في الحيز العام لكنها شديدة الارتباط بالبلاط وبطانته، وتتميز منها «منظمات السيدات الأوْلَيات (الفلنغوز Fl,Ngos). تتمتع هذه المنظمات، على غرار «الأمانة السورية للتنمية Trust»، بحمايةٍ وحريّة حركةٍ وتمويلٍ وسلطات تدخلٍ لا حدود لها، مما يحولها إلى ما يشبه

«ثقباً أسود» يجذب كل الطاقات المتحفزّة للعمل المدني، وخاصة الشباب، بفعل المغريات المادية والمعنوية التي توفّرها لها. على هامش هذه المنظمات المتعملقة باستمرار، سُمح لبعض الجمعيات الجديدة، كجمعيات حماية البيئة، بالوجود لتجميل المنظر العام، لكن الرقابة لم تبارح كل هذه التكوينات، إذ كان يكفي شيء من غضب المتنفذين للتراجع عن قرار التسامح، كما حدث مع جمعية المبادرة الاجتماعية مثلاً.

لقد كانت الثورة السورية في بدايتها انتفاضة حرية وكرامة، قام بها مجتمع مدني غير منظم. لكن سرعان ما تبينت أمام الناشطين الحاجة إلى التنظيم المجتمعي، فبدأت تتأطر مجموعات ضمن لجان تقوم بإدارة الحَراك، ثم أخذت هذه اللجان تتلاقى في تجمعات أكبر لتنظيم العمل على مستوى أعمّ من مستوى مجاميع الأصدقاء، أو الشلّة، واضعة علامة فارقة على خطى بناء مجتمع مدني جديد ينطلق من حرية الأفراد ويتطلع إلى حرية المجتمع. ثم أدى تطور الأزمة وما سببه تصاعد العنف السلطوي من تشريد وتهجير وتدمير إلى نشوء جماعات جديدة تعمل على تقديم الإغاثة والمساعدة على استمرار الحياة، في مجالات عديدة (الصحة، التعليم، الدعم النفسي، الإيواء...) واستطاع الناشطون المدنيون، ومن الشباب خاصة، تملك خبرة واسعة في زمن قصير.

لا يبدو الوضع السوري القائم اليوم مبشراً باستقرار قريب، اللّهم إلا الاستقرار في العنف. لكن، لا بد من وقت

تنتهي فيه الأمور إلى صورة ما. وأيا كانت هذه الصورة سيكون للمجتمع المدني اليد العليا في إظهارها وتكوين إحداثياتها. إن قضايا من قبيل المصالحة الوطنية والسلم الأهلي، والعدالة الانتقالية، ومراقبة الانتخابات، وحماية الإرث الثقافي... كلها ميادين ستطرح نفسها بقوة على المجتمع (إن لم يكن بعضها قد فعل)، ولا يفيدنا بأي حال انتظار الغد للتفكير بما يجب عمله. علينا التفكير، اليوم وليس غداً، ببناء المجتمع المدني المقبل.

المدن
2013/6/26

صناعة التفاؤل

المهم أخيراً.. هل أنت متشائم أم متفائل؟

يكاد لا ينجو نقاش بين سوريَّين يلتقيان بعد غياب من هذا السؤال المفتوح على مزدوجة من حالين قصِيّين متناقضين: التشاؤم أو التفاؤل. ومن نافل القول إن المقصود من الحالين يخص حال البلد بالدرجة الأولى قبل حال أهلها.

يعرّف المصوّر الفرنسي بيكابيا المتشائمين بأنهم أولئك «الذين يرون النهار منحصراً بين ليلين»، أما المتفائلين فهم «الذين يرون الليل منحصراً بين نهارين». فإن ترجمنا هذه المعادلة بدلالة الوضع السوري نجد أن المتشائم هو من يقول بأن القادم لن يختلف في طبيعته عن الراحل، وأن الاستبداد سيستبدل بآخر، رغم استثنائية اللحظة الثورية التي تعرفها البلاد. أما المتفائل فهو المقتنع بأن البلاد كانت بهيّة وستعود أكثر بهاءً بعد انتهاء هذه اللحظة المأساوية.

يحق للسوريين أن يتشاءموا، فالمصاب عميم، والكارثة لم تترك عائلة بلا أذى. والفرق بين عائلة وأخرى هو في حجم الأذية التي لحقت بها وليس في مدى نجاتها منها. ويحق لهم

أن يتشاءموا لأن الأيام تتوالى شحيحة بالأخبار السعيدة، أو حتى بما يدعو إلى ترقّب السعادة. بل تبدو نهاراتهم القادمة حبلى بعذابات قد تكون العذابات المعاشة في ليلهم القاتم اليوم رفاهية مقارنةً بها. وكأن تطور الشأن السوري تظهير لمقولة المسرحي جان راسين: «ربّ ليلٍ أكثر بهاء من بعض النهارات».

وحدهم تجار الحروب لا يتشاءمون. تشاؤمهم يعني أن القتل ماضٍ إلى انحسار. وإن حصل ذلك فإنهم مستعدون لصب زيتهم على خامد النيران ليعود التهابها، ويعود تفاؤلهم بغنائم موعودة. يُروى عن السياسي والمؤرخ الفرنسي فرانسوا غيزو قوله: « العالم مِلكٌ للمتفائلين، أما المتشائمين فليسوا أكثر من متفرجين». ولم يكن المتفائلون في عقيدة غيزو غير الأثرياء العاملين على تكديس الثروات أيا كانت الوسيلة إلى ذلك. أما المتشائمين فكانوا برأيه أهل باريس الذين قاموا بثورة شباط 1848 والذين اقترح على الملك لوي فيليب أن يبيدهم هم ومتاريسهم.

هل ينسجم التشاؤم حقا مع الثورة؟ إن لم يكن التشاؤم حالة مرضية تسحق روح صاحبها فهو لا ينسجم مع الثورة فحسب بل ضروري لها. التشاؤم في هذا المعنى وضع خلاّق يحمي أنصار الثورة والفاعلين فيها من التراخي أمام وردية الأحلام، وينجيهم من الاستسلام إلى حتمية تحقيق المشتهى. هو ناقوس يقرع رأس أهل الثورة لكي لا يتوقفوا عن معاينة حالها ودراسة واقعها المتبدل معاينة صارمة، صادقة،

مستديمة تساعدهم على تملّك القدرة على فهم تغيرات الواقع وعلى تفكيك تعقيداته. التشاؤم طاقة ذهنية وروحية تبقي على أهداف الثورة ماثلة في عقول أهلها، وتنبههم إلى انحراف مساراتهم ليقوّموها، وإلى تراخي هممهم ليوقظوها.

في هذا السياق، تصبح صناعة التفاؤل أهم وظيفة للتشاؤم. ليس في الأمر أي تناقض بل هو أمر تعلمنا إياه الطبيعة، إنه استخراج الترياق من السم، أو استخدام الميكروبات المسببة لمرض ما في صناعة لقاح يحمي من هذا المرض. ولا تبتعد هذه الفكرة عن القاعدة النضالية الغرامشية: «تشاؤم العقل وتفاؤل الإرادة». فتشاؤم العقل هنا ليس نقيضا لتفاؤل الإرادة وإنما هو المحفّز المستمر لهذه الإرادة لكي لا تتوقف عن صناعة التفاؤل.

إن من ينظر إلى الواقع السوري اليوم، وإلى الوجهات التي تحولت إليها الثورة، وإلى المآلات التي يقود إليها تطور الأوضاع يحق له أن يتشاءم. لكنه إن بقي في حال التشاؤم ذاك وقع في سوداوية مرضية لا تُخرج من الحمأة التي نحن فيها ولا تنجي من جهنم التي تنتظرنا. ثمة مهمات جسيمة ترخي بأثقالها على أكتافنا، وإن لم نشحن إرادتنا لإزاحتها ستسحق بلدنا وتسحقنا حتى لا يبقى له ولنا وجود.

قد لا يكون غدنا نحن السوريين مشرقا، لكن علينا فعل المستحيل لنثبت الشمس في كبد السماء.

المدن
2013 /5 /9

المدرسة السورية... الآن

«المدرسة هي مصنع المواطنة»، هكذا تقول كل أدبيات المواطنة، حتى تلك التي تنتقد ما تسمّيه «المفهوم التقليدي» للمواطنة وتطالب بالاعتراف بالحقوق الثقافية للجماعات ضمن الوحدة السياسية للبلد. ولا يختلف اثنان بأن المدرسة السورية لم تكن نموذجاً للمدرسة المواطنية خلال العقود الماضية. ويعود ذاك إلى سببين أساسيين: الأول هو الفكر الشعبوي الذي يرى في المدرسة جهازاً تعبوياً وظيفته تنشئة أجيال مشبعة بالفكر الأحادي الذي نصب نفسه قائداً للدولة والمجتمع؛ الثاني، وهو منبثق عن الأول، البرامج التعليمية التي لم يتم وضعها ضمن منظور يتطلّع إلى تربية المواطن وصناعته فعمّقت من التصدعات الطبيعية في المجتمع وأنشأت أجيالاً من السوريين غير المدركين لحقيقة الاختلاف التي يتصف بها مجتمعهم. وهذا ما كان من نتائجه تشكل صور نمطية عن الآخر، تُلقى عليه من خارج كينونته، ولا تَفهَمه من داخل تشكّلِه. هل يعرف السوريون العربُ السوريين الكردَ حقاً؟ هل يعرف المسلمون المسيحيين حقاً؟

بل حتى داخل الإسلام ذاته، هل يعرف أهل طائفةٍ الخصائص المميزة للطوائف الأخرى؟

عملت المدرسة السورية على طمس الاختلافات المتشكلة تاريخياً وثقافياً، وحين كانت غيرَ قادرة على طمسها رفعت الجدران بينها. وهكذا نشأت أجيال لا يعرف أولادها الآخرين، يجهلونهم، والإنسان عدوٌ لما يجهل. وقد شكّل هذا الجهل، أرضية خصبة للاستقطاب الطائفي الذي دفع إليه النظام كواحدةٍ من أدوات حلّه الأمني العسكري من جهة، وللتشدّد القومي لدى المكوّنات القومية المغبونة حقوقها من جهة أخرى.

على المستوى المادي العمراني، أدّى الحل الأمني إلى تدمير عدد هائل من المدارس وصل إلى أربعة آلاف مدرسة حسب بعض التقديرات، ناهيك عن أن عدداً من المدارس بات يستخدم كمراكز إيواء للعائلات المهجّرة، وأن عدداً آخر لا تمكن الاستفادة منه لصعوبة وصول التلاميذ والأساتذة إليه. حتى في الأماكن الآمنة نسبياً كالعاصمة وضواحيها، يتردّد الأهالي كثيراً في إرسال أولادهم إلى المدرسة خوفاً عليهم من مفاجآت القصف العشوائي.

لا مجال للمجادلة بأن هذه الخسارة الجسيمة في البنية التحتية للمؤسسات التعليمية، أضف إلى ذلك تآكل الدولة ومؤسساتها، وبالدرجة الأولى المؤسسات الهشّة كالمؤسسة التعليمية، في مساحات واسعة من البلاد بعد أن انهارت فيها

آليات الضبط والنظام، تخلق مشاكل جديدة في مجال التعليم لن تستطيع سورية تجنب مفاعيلها السيئة. مشكلة إعادة إعمار البنية التحتية بالدرجة الأولى؛ ومشكلة «الفجوة التعليمية» ثانياً، ليس بين المهارات ومتطلبات سوق العمل فقط وإنما في العدالة التعليمية بين الجنسين، وبين مختلف المناطق، إذ أن ثمة مناطق كثيرة لم ينل تلاميذها أي قسط من التعليم خلال سنتين...

لكن يجب ألا يمنع ظهور هذه المشاكل الخطيرة من طرح مسألة التربية على المواطنة في المدرسة على بساط البحث، واعتبارها قضية لا تقلّ في جديتها عن المشاكل الأخرى، مادام الثوار مقتنعين بأن دولة المدنية والمواطنة لا تزال هدفاً للثورة.

لقد انتشرت مؤخراً أخبار متسربة من مخيمات اللاجئين السوريين في تركيا مفادها أن ثمة صفوفاً افتتحت داخل المخيمات لتعليم الأولاد. لكن تعليمَ المناهج السورية ممنوعٌ فيها، وإنما يتم تعليم مادتين فقط في تلك الصفوف الإغاثية: اللغة التركية والتربية الدينية.

وبات من المعروف أن بعض المناطق ذات الأغلبية الكردية افتتحت مدارس تعلّم الأطفال منهجاً متكاملاً، منقولاً من مدارس كردستان العراق، باللغة الكردية.

وتجوب فضاء وسائل الاتصال الاجتماعية صورة من ريف إدلب لتلاميذ صغار في غرفة تخدم كصف مدرسة.

في طرف من الغرفة تلاميذ يقرؤون، وفي الطرف الآخر يقف تلاميذ يؤدون الصلاة.

وسنرى الكثير من الأمثلة الأخرى التي إن دلّت على شيء فإنما تدل على إعادة إنتاج المدرسة التعبوية ليس على مستوى الوطن ككل هذه المرة وإنما على مستوى المكونات المجتمعية الدينية والقومية. مما يعني أكثر فأكثر من التصدعات وأقل فأقل من المواطنة.

لذلك وجب التساؤل: المدرسة السورية، إلى أين؟

المدن
2013/3/6

المواطنة أمام امتحان الوباء

ليس الكوفيد-19 أول وباء عرفه التاريخ، ولا شيء يسمح بالاعتقاد بأنه سيكون الاخير. وليس أخطر وباء أصاب البشرية ورجاؤنا طبعا ألا تعرف ما هو أخطر منه. لكن ربما كان أكثر وباء شغل الناس والحكومات عبر العالم، وتفاعلت الدنيا مع تطوره، وتأثرت بكل ما ينقل عنه من أخبار صحيحة أو شائعات أو أكاذيب، فيما يشبه الهيجان الاعلامي الذي لم يتردد علماء ومفكرون وسياسيون ورؤساء دول عن الانخراط فيه.

من الواضح أن عمق انشغال الناس بالوباء عائد إلى عدد من الخصائص المرتبطة بالفيروس نفسه ومنها سرعة انتشاره وصعوبة التعرف عليه، وتخبط المرجعيات الصحية في سبل معالجته والحماية منه؛ لكنه عائد أيضاً لحجم التساؤلات التي أطلقها حول العيش المشترك، وسبل إدارة هذا العيش، أي حول المواطنة بمعناها الاوسع، المواطنة كعلاقات تنبني بين المواطن والحكومة وبين المواطن والمجتمع ليس بهدف صهر المواطنين في قالب ينتج مواطنا موحداً خانعاً راضياً

بما يقسمه له النظام، وإنما بهدف المساعدة على زيادة رقعة الحريات والحقوق وتحقيق قدر أكبر من العدالة الاجتماعية بدون التفريط بكرامة المواطنين وبدون قمع قناعاتهم وثقافاتهم على اختلافاتها.

مع توّضع الوباء في العالم، وجدت المواطنة نفسها أمام امتحان مفصلي، يعيد نقاش البديهيات التي تواضع البشر على اعتمادها كمبادئ أو كقيم للمواطنة، ويطرح التساؤل عن حالها وعن مدى تأثرها بإجراءات مواجهة الوباء.

تتصدر الحرية مبادئ المواطنة لأنها غاية الانسان وشرط وجوده، وليس من العبث القول، إن السعي نحو مزيد من الحرية للمواطنين، هو في أصل كل التنازعات القائمة بينهم وبين السلطات، سواء أكانت سياسية أم اجتماعية أم اقتصادية أم ثقافية. إن نظرة متفحصة على العالم قبل توضع الوباء، تظهر حجم التراجع في الحريات التي سجلت في الدول كافة، وإن بدرجات متفاوتة. ولعل الدول الديمقراطية، هي التي سجلت اكبر قدر في ذاك التراجع نسبة إلى الوضع الجيد الذي كانت تعرفه في العقود الماضية. وتتلخص أسباب ذاك التراجع في عدد من الاسباب الرئيسة أهمها:

1- نمو الحركات الشعبوية، وتزايد قوتها اجتماعياً، بل وتمكنها من السيطرة على السلطات السياسية في العديد من البلدان.

2- انتشار الافكار العنصرية، وإيديولوجيات التعصب

القومي والديني، وبخاصة ضد المهاجرين واللاجئين والمهمشين.

3- التوجه نحو المزيد من التضييق على حرية التفكير والإعلام والإستعلام، والرقابة على الصحافة والنشر.

وقد أدت هذه الحال إلى تفاقم العوز في تحقق المواطنة على مستوى العالم، على الرغم من تكّون بعدٍ جديد لـ «المواطنة العالمية» يجهد لحشد النضال من أجل المزيد من حقوق المواطنة على صعيد كوني عابر للحدود.

مع انتشار الوباء، وجدت الأنظمة فرصتها الذهبية لتتمادى في التضييق على الحريات بذريعة أولوية محاصرة انتشار الوباء، ولم تتوان عن استغلال تعليق الحياة السياسية، وتضييق الفضاءات الاجتماعية لفرض إجراءات ما كان بمقدورها الأقدام على فرضها بسهولة في الحالات الطبيعية.

لم تكن حال المساواة، وهي مبدأ آخر من مبادئ المواطنة، أحسن من حال الحرية. وإن كان من الصحيح أن البشرية، لم تعرف على امتداد التاريخ حجم خيرات كالذي تملكه اليوم. فمن الصحيح أيضاً، أنها لم تعرف قط قدراً من اللامساواة في اقتسام هذه الخيرات كالذي تعرفه اليوم. وفي شتى المجالات: في التكنولوجيا المتقدمة والخبرات الانتاجية والمعارف العلمية والموارد المتاحة، إلخ. ورد في دراسة نشرها موقع «دفاتر التنمية المستدامة» التعليمي أن

الـ 20 ٪ الأغنى من سكان العالم عام 1989 كانوا يستأثرون بـ 82.7 ٪ من مداخيله في حين كان الـ 20 ٪ الافقر يستأثرون بـ 1.4 ٪ من المداخيل فقط. وعلى الرغم من قدم هذه المقارنة نسبياً، ليس ثمة ما يجعلها غير صحيحة اليوم. إذ من المعروف أن العولمة ما فتئت تفاقم، من سبعينيات القرن الماضي، التفاوت في توزيع الثروات على مستوى العالم. ومن جهة أخرى تشير كل مراصد اللا مساواة في العالم إلى تعاظم اللا مساواة الاقتصادية ليس بين الدول الغنية والفقيرة فحسب، وإنما أيضاً بين الأغنياء والفقراء، الرجال والنساء، سكان المدن والضواحي، إلخ. داخل أغلب بلدان العالم.

ولا تنحصر اللا مساواة في ميدان الاقتصاد فحسب، وإنما تمتد إلى كافة مجالات الحياة، وقد كشف الوباء حجمها في القطاع الصحي، حيث تبيّن مدى أثر السياسات النيوليبرالية على هذا القطاع الذي انسحبت الحكومات منه، و يدور بسرعتين مختلفتين: صحة المتمكنين ماليا القادرين على الاستفادة من التقدم الطبي ومن الاستشفاء في المشافي الخاصة، وصحة الآخرين المتروكين لرحمة القطاع الحكومي المفَقّر ذي البنية التحتية المهترئة. لقد تبين في فرنسا مثلاً أن واحداً من أهم أسباب ارتفاع عدد الوفيات بين المصابين بالكورونا، هو ضعف البنية التحتية الصحية العامة والتي كان من مظاهرها التراجيدية تراجع عدد الاسرة في المشافي العامة بمقدار مائة ألف سرير خلال العشرين عاماً الماضية.

من الخطأ أن ننظر إلى المواطنة من زاوية العلاقات

القائمة بين المواطنين والحكومات فحسب، وننسى أنها تعني أيضاً، العلاقات التي تتوضع بين المواطنين أنفسهم، وتفرضها ضرورات العيش المشترك. وتحكم هذه العلاقات إضافة إلى مبادئ الحرية والمساواة والمسؤولية والتشاركية، مجموعة من القيم التي يفترض، أن يكتسبها المواطنون في سيرورات تنشئتهم الاجتماعية. تبدو قيم الوعي المدني والتضامن والكياسة والانسانية أسمى هذه القيم وأكثرها وضوحاً في العلاقات المواطنية، ويمثل وجودها أو غيابها المحك الذي تقاس على أساسه مواطنية الناس.

لقد وفّرت الظروف التي أوجدها وباء الكورونا مجالاً استثنائياً لمعايرة مدى تمثل قيم المواطنة، وبالتالي لمعرفة حال المواطنة في شتى الدول. لاشك أن كثيرين منا سيصابون بخيبة الأمل والإحباط، إذا مانظروا إلى النصف الفارغ من الكأس. إلى مظاهر ضعف الوعي المدني لدى مواطنين رفضوا الامتثال لتعليمات الجهات الصحية العاملة على تخفيف انتشار الوباء، فتجمعوا في أماكن عامة دون أي وقاية، أو لدى جماعات من أنصار الجمهوريين في عدد من الولايات الاميركية أو اليمين المتطرف في اسبانيا، أو لدى جماعات من المتدينين، خرجوا في مظاهرات في عدد من المدن في المغرب ومصر والباكستان، يكبّرون ضد الحجر الصحي، أو في اجتياح زبائن للمجمعات التجارية للحصول على أكثر، ما يستطيعون تخزينه من مواد غذائية وتنظيفية. وقد تكون النظرة أكثر تشاؤما ويأساً نسبة للأخبار المتواترة

عن حدوث حالات تمييز بين المرضى المحتاجين لأجهزة التنفس الاصطناعي الشحيحة على أساس العمر أو الجنسية أحياناً.

غير أن المشهد العام على امتداد العالم، يعطي صورة أقل قتامة، ويظهر أن قيم المواطنة ليست متراخية إلى هذا الحد. فوسائل الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي ملأى بالأخبار من كل حدب وصوب عن مبادرات تضامنية لتقديم المساعدات والغذاء للمسنين المحجورين في بيوتهم، أو للعمال الذين توقفت أعمالهم اليومية، أو للاجئين والمهاجرين الذين انقطعت بهم السبل، أو للتلاميذ المنقطعين عن التعليم في بيوتهم، أو للعاملين في القطاع الصحي المستنفرين في خندق الدفاع الاول، وغيرها الكثير.

وضعت الكورونا المواطنة أمام امتحان خطير، كشف العوز في تحققها بسبب سياسات الفساد والعنصرية والشعبوية والتطرف، لكنه أظهر أيضا وبشكل لا يحتمل اللبس مقدار القوة الكامنة في المجتمع المدني بمنظماته ومجموعاته وأفراده الناشطين. هذا المجتمع الذي يخترع المبادرات، ويبدع النشاطات، ويطلق الحملات، ليثبت ميدانيا أن المواطنة، ليست فكرة نظرية جذّابة فقط، بل قوة حقيقية فاعلة وقادرة على مقاومة الانظمة والسلطات والضغط عليها للجم تغولها.

معهد الاصفري للمجتمع المدني والمواطنة
https://ar-ar.facebook.com/AsfariInstitute/posts/2981079258645532/

سوريا لا أمّ لها

غدا احتمال تقسيم سورية إلى دولتين أو أكثر، تأسيساً على التصدّعات الأثنية و/ أو المذهبية الكامنة في المجتمع، واحداً من السيناريوهات الشائعة التداول على صفحات الإعلام أو في نقاشات الحياة اليومية. إن السهولة التي باتت تطرح بها مسألة بالغة الخطورة كمسألة تقسيم البلاد تعيد إلى الأذهان السؤال العميق والخطير عن الشكل النهائي للوطن السوري، وتسترجع مخاوف راسخة في الذاكرة الجمعية السورية حول هذا الموضوع. لقد جنّد النظام الدولةَ وأجهزتها الإيديولوجية المختلفة لتقوم بأدوتة بعض هذه المخاوف كقضايا صراع يستطيع التلاعب بها بما ينسجم مع مصالحه السياسية والجيوسياسية المتغيرة. لكنه، في الوقت نفسه، وضع كل طاقاته لكتم أي صوت يذكّر ببعضها الآخر، كما لو كان يريد أن يمحوها من ذاكرة الناس، لغاية ليست في نفس يعقوب وإنما طي الوثائق السرية التي قد تنكشف أمام الأجيال القادمة، أو تغرق في غياهب النسيان.

الذاكرة الجمعية السورية عن الوطن كمكان جامع لمواطنيه حبلى بندوب البتر والاستئصال والاقتطاع.

بدأت أولى عمليات تقسيم المنطقة عام 1916 عندما قررت حكومتا فرنسا وبريطانيا تقسيم بلاد الشام والعراق إلى دويلات صغيرة حسب اتفاقية سايكس بيكو. وبعد سنة من تلك الاتفاقية، أصدرت الحكومة البريطانية عام 1917 الرسالة التي صارت تُعرف في ما بعد باسم «وعد بلفور» والتي تعهّدت فيها بالمساعدة على إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وكان كما يعرف الجميع أساس تأسيس دولة إسرائيل بعد ثلاثة عقود من صدوره.

في اليوم الأول من تشرين الأول عام 1918، دخلت قوات الثورة العربية مدينة دمشق، وفي الشهر نفسه احتلت فرنسا الساحل السوري تطبيقا لاتفاقية سايكس- بيكو. وقد رفض المؤتمر السوري العام الذي انعقد في حزيران 1919 في دمشق الاتفاقية والوعد والانتداب، وطالب باستقلال سورية الطبيعية (بما فيها لبنان وفلسطين) والعراق. لكن رئيسي الوزراء البريطاني «لويد جورج» والفرنسي «جورج كليمنصو» عقدا اتفاقا في أيلول من العام نفسه أكّدا فيه على الاتفاقية مع تعديل بسيط يعطي لفرنسا الساحل السوري مقابل منح الموصل لإنكلترا. وبناء على ذلك الاتفاق دخلت قوات الانتداب الفرنسية سورية يوم 20 تموز 1920، وبعد أربعين يوما (31 آب) أصدر غورو قراراً بضم الأقضية الأربعة (بعلبك والبقاع وحاصبيا وراشيا) والساحل إلى جبل لبنان لإنشاء دولة لبنان الكبير.

عام 1921 عقدت فرنسا اتفاقية أنقرة الأولى التي منحت بموجبها لتركيا منطقة (جنوب الأناضول) التي تضم (كليكيا وأضنة والرها وحرّان وماردين وديار بكر..)، وفي 23 حزيران 1939 عقدت اتفاقية أنقرة الثانية التي نصّت على ضم لواء إسكندرون نهائياً إلى تركيا لاستمالتها في الحرب العالمية الأولى ضد ألمانيا.

وفي حرب حزيران 1967 «النكسة»، قامت إسرائيل باحتلال الجولان، لتقوم بعد ذلك بضمه رغم أنف الشرعية الدولية المطالبة بعودة الأمور إلى ما كانت عليه يوم 4 حزيران.

سلسلة من الاتفاقيات والمعاهدات المعلنة أو المخفية انتهت بالوطن السوري إلى الشكل الذي هو عليه الآن، وربما يجدر بالسوريين أن يستذكروها الآن، ليس إحياءً لمفاصل أليمة في حياة وطنهم فحسب، بل إذكاءً ليقظة واجبة ومشتهاة قبل أن «يقع الفاس بالراس»، حسب المثل السائر.

يروي العهد القديم في سفر الملوك (3، 16-28) حكاية عن حكمة النبي سليمان حين مثلت أمامه امرأتان تدعيان أمومة طفل واحد، فأمر بقطع الطفل نصفين ومنح كل امرأة من المدعيّتين نصفه. لكنّ الأم الحقيقية ترفض التجربة وتتنازل عن حقها إشفاقا على طفلها. وقد اعتمد المسرحي الألماني «برتولد بريخت» على هذه الحكاية في كتابة مسرحيته «دائرة الطباشير القوقازية» عام 1945. وفي

هذه المسرحية يأمر القاضي «أزداك» بوضع الطفل المتنازع عليه ضمن دائرة، ثم تقوم المرأتان بشده وتلك التي تقدر على سحبه خارج الدائرة تفوز به، وهنا أيضا تتنازل الأم التي تحب الطفل أكثر، رغم أنها الأم (غير الحقيقية)، عن حقها خوفا على الطفل من الأذية.

لقد كان التاريخ المعاصر ظالما بحق سورية التي تجاذبتها قوى قطعت أوصالها. واليوم، وأمام التساهل في الحديث عن تقسيم البلاد، أخشى ما نخشاه أن يتحول الهزل إلى جد. إذ لا يبدو أن ثمة ما يمنع تكرار مآسي التاريخ، وسورية، كما تثبت الوقائع كل يوم، لا أم لها تحميها.

المدن
2013/5/27

الملحق الأول (6)

مسارات حسان عباس في دروب الحياة

• **معلومات عائلية:**

- الاسم حسان عبد الهادي عباس.
- الولادة في مدينة مصياف (محافظة حماة) بتاريخ 15 نيسان 1955.
- الدراسة الإبتدائية موزعة بين دمشق ومصياف.
- الدراسة الإعدادية والثانوية بين مصياف ودمشق.
- الدراسة الجامعية في سوريا تمت في كلية الآداب قسم اللغة الفرنسية.
- الدراسات العليا في فرنسا تمت في جامعة السوربون الجديدة (باريس الثالثة).
- الأب السيد عبد الهادى عباس محامٍ مقيم في دمشق.
- الأم السيدة خديجه ناصر (متوفاه).
- الأخت السيدة نوار عباس موظفة متقاعدة.
- الزوجة السيدة فاطمة الزهراء حاج عبيد وهي طبيبة أخصائية أذن، أنف، وحنجرة.

- الابن الأول آرام مواليد باريس في كانون أول 1990 درس في كلية الفنون الجميله في جامعة دمشق، ثم ماستر في باريس، يعمل بالتأليف الموسيقى، ويعيش فى باريس.
- الابن الثاني يزن مولود في باريس في تشرين الثاني 1992، درس إدارة الأعمال في بريطانيا، يعمل ويقيم في بريستول.

• التعليم والتأهيل الأكاديمي:

- دكتوراه في الأدب الفرنسي الحديث (النقد الأدبي) من جامعة السوربون الجديدة (باريس الثالثة) باريس 1992.
- شهادة الدراسات المعمقة (النقد الأدبي) من جامعة السوربون الجديدة (باريس الثالثة) باريس 1984.
- شهادة الدبلوم (النقد الأدبي) من جامعة السوربون الجديدة (باريس الثالثة) باريس 1982.
- إجازة في الأدب الفرنسي من جامعة دمشق1981.

• دراسات موازية:

- الحلقة الأولى من الدراسات الطبية - جامعة مونبلييه - فرنسا. 1974-1977
- سنة أولى في كلية الحقوق، الجامعة العربية، بيروت 1977-1978 (توقف بسبب الحرب).
- سنة أولى في كلية الفلسفة، الجامعة اللبنانية، طرابلس 1977-1978 (توقف بسبب الحرب).

- سنتان (مستمع حر) في قسم تاريخ الفنون، مدرسة اللوفر، باريس 1986-1988.

• **خبرات مهنية:**

- مراسل ثقافي من باريس لعدد من الصحف العربية 1986-1992، نشر قسم منها باسم مستعار (يوسف عبد الهادي).
- أستاذ في (المعهد الفرنسي للشرق الأدنى) في دمشق ثم بيروت 1992-2016.
- مسؤول النشاطات الثقافية في (المعهد الفرنسي للشرق الأدنى) في دمشق 1993-2006.
- أستاذ مادة الترجمة السياسية في (المركز الثقافي الفرنسي) (شهادة الترجمة بين العربي والفرنسي الملحقة بجامعة «ليون» الثانية (DUTFA) 1995-1998).
- أستاذ مادة «النقد الأدبي» في المعهد العالي للفنون المسرحية في دمشق. 2001-2009
- باحث مقيم في المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق: (دراسات حول «الثقافي» و«السياسي» في سورية المعاصرة). 2003-2007 ثم «باحث مشارك» منذ 2007.
- محاضر في عدد من الجامعات العربية والأوروبية منذ العام 1999 وحتى اليوم.
- باحث مشارك، ومدير برنامج «الثقافة كمقاومة» في (معهد

الأصفري للمجتمع المدني والمواطنة) في الجامعة الأميركية في بيروت. 2017 حتى اليوم.

• **خبرات موازية:**

- باحث زائر في إطار برنامج (زائرو الاتحاد الأوروبي) موضوع البحث: «دور التبادل الثقافي في إحياء المجتمع المدني 1997».
- باحث زائر في «معهد الدراسات السياسية» IEP في باريس 2002.
- مشارك في عشرات اللقاءات حول قضايا ثقافية مختلفة، وحول قضايا التبادل الثقافي الأوروبي المتوسطي، وقضايا المواطنة وحقوق الإنسان 1995 وحتى اليوم.

• **نشاطات أكاديمية:**

- أستاذ زائر في مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية (EHESS – باريس) 2003.
- تنظيم ندوة دولية حول «الأطر الاجتماعية الثقافية لتشكيل الصورة النمطية: دراسة حالة سورية ولبنان بالاشتراك مع (المركز الثقافي الدنماركي) و(المركز الفرنسي للشرق الأدنى) في دمشق2004».
- تنظيم ندوة دولية حول «المثقفون والإسلام والسلطة»، (المركز الفرنسي للشرق الأدنى IFPO) في دمشق2005.

- تنظيم ندوة دولية حول «الجسد والهوية، تمثلات الجسد في الثقافة العربية»، (المركز الفرنسي للشرق الأدنىIFPO) في دمشق2006.
- الإشراف على القسم الخاصّ بسورية من مشروع «أحوال البحث العلمي في العلوم الإنسانية في حوض المتوسط»، (معهد البحوث والتنمية IRD في باريس) 2006–2007.
- تنظيم ندوة دولية حول «العلمانية والمواطنة» بالاشتراك مع المفكر الفرنسي ريجيس دوبريه، (المركز الفرنسي للشرق الأدنى IFPO) في دمشق 2007.
- المدير العلمي لمشروع «أطياف: بناء الخارطة الثقافية في سورية» لصالح (الأمانة السورية للتنمية) 2009–2010.
- المشاركة في تنظيم مائدة مستديرة دولية حول «المواطنة والجندر في بناء الديمقراطية»، (الجامعة الأمريكية) في بيروت، و(مركز الأصفري للمجتمع المدني والمواطنة)، بالمشاركة مع «المبادرة النسوية الأوروبية» و«الرابطة السورية للمواطنة». بيروت 2015.
- أستاذ زائر في (مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية EHESS) في باريس2016.
- تنظيم ندوة حول (الفاعلية الثقافية السورية في لبنان) بيروت 2019.

• **نشاطات ثقافية:**

- مؤسس ومسيّر عدد من النوادي السينمائية.
- مؤسس ومسيّر عدد من النوادي الأدبية، «المقهى الأدبي»، «نادي اقرأ كتابا تزدد شبابًا».
- عضو في عدد من لجان التحكيم في مسابقات دولية (تصوير فوتوغرافي، أدب، فن تشكيلي).
- عضو متفرغ في مجلس إدارة احتفالية «دمشق عاصمة للثقافة العربية 2008» 2007 (استقالة).
- مؤسس دار نشر «بيت المواطن»، ومديرها.

• **نشاطات مدنية:**

- مؤسس ومشرف على «منتدى الجمعة الثقافي» في (المعهد الفرنسي للدراسات العربية)، دمشق، حتى إغلاقه (1993–2006).
- عضو مؤسس ومشرف على «منتدى الحوار الثقافي» في منطقة مشروع دمر، دمشق، حتى إغلاقه (1999–2004).
- عضو مؤسس، أو عضو إداري في عدد من الجمعيات الثقافية أو المدنية «جمعية حقوق الإنسان في سورية «HRAS»، «جمعية النهضة الفنية»، «المنتدى الأوروبي المتوسطي للتبادل الثقافي «FEMEC»، «مركز دمشق لدراسات حقوق الإنسان»، «رابطة أصدقاء الكتاب في سورية»، مؤسس «الرابطة السورية للمواطنة» ورئيسها حتى الآن.

- مدرّب خبير في قضايا المواطنة والثقافة والمجتمع المدني (2011 ومايزال)

• **أعمال منشورة:**

• **كتب:**

- أنا، أنت، هم، كتاب جماعي عن المواطنة، 2002.
- دليل المواطنة، بالاشتراك مع الفنان أحمد معلا (مترجم إلى الإنكليزية)، 2004.
- رحلة مع الهايكو، دار نشر «ألف»، دمشق 2008.
- سورية: رؤية من السماء، بالاشتراك مع المصور الفوتوغرافي هشام زعاويط، نشر «شركة توتال»، 2009.
- الخارطة الثقافية لمنطقة وادي النصارى في سورية، 2010. (منع من النشر في سورية).
- لا تغمض عينيك، دار «بيت المواطن للنشر»، دمشق، 2016.
- الموسيقا التقليدية في سوريا، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (يونسكو UNESCO) 2018.
- الجسد في رواية الحرب السورية، (المعهد الفرنسي للشرق الأدنى)، قيد الطبع.
- منظور مختلف عن الواقع السوري (تقديم اتجاهات بالتعاون مع دار نشر ibidem-Verlag. 2018).

• **كتب مترجمة:**

- حكاية أصبوعة الصغيرة، قصة للأطفال تأليف: هانس أندرسن، دار «ألف»، تونس.
- ماكينة الإبصار، تأليف بول فيريليو، دار المدى، دمشق.
- المفكرون الجدد في الإسلام، تأليف رشيد بن زين، دار الجنوب – تونس 2009.

• **دراسات وكتابات:**

- شارك بدراسات نشرت في كتب جماعية: ألمانيا (3)، إسبانيا (3)، تونس (1)، سورية (4)، الشارقة (1)، فرنسا (4)، هولاندا (1)، تركيا (1)، بريطانيا (1).

ونُشر عدد كبير منها في مجلات: سورية، لبنان، الكويت، فرنسا، بلجيكا، إيطاليا، إسبانيا، وغيرها من البلدان العالم.

- كتب ونُشر له أكثر من 400 مقالة في الصحف والمجلات العربية.
- محرر مشارك في «الموسوعة العربية الكبرى»، دمشق.

الملحق الثاني

روابط من نشاطات حسان عباس ومقابلات معه وكتاباته

• **وصلات الكترونية:**

- الرابطة السورية للمواطنة

http://sl4c.org/ar/

- معهد الأصفري في الجامعة الأميركية في بيروت

https://aub.edu.lb/asfari/Documents/Call%20for%20Application%20Asap%202019.docx

• **مقابلات مع حسان عباس:**

- **راديو روزنة:** حسان عباس: الثورة أكبر من كل من تنطح لقيادتها

https://www.youtube.com/watch?v=SU6pa-TDymY

- **مقابلة مع موقع صور:** الدكتور حسان عباس: لا تستطيع بناء مواطنة إن لم يتحقق وجود «وطن»

https://www.suwar-magazine.org/artcles/1060_%D8%A7%D9%84%D8%AF%

- **مقابلة مع DW عربية:** حسان عباس: المواطنة أساس قيام دولة مدنية ديمقراطية في سوريا.

- **مقابلة على راديو سوريالي:** عن مفهوم المواطنة مع الدكتور حسان عباس.

https://soundcloud.com/souriali/shu230-250919

- **مقابلة مع مركز حرمون:** حسان عباس: نظام الأسد يستثمر في مظلومية مُصطنَعة أتاحها له «قانون قيصر»

https://www.harmoon.org/dialogues/%D8%AD%D8%B3%D8%A7%D9%86-%D8%

- **كتب:**

- دليل المواطنة.

https://www.goodreads.com/book/show/33555964

- الموسيقى التقليدية في سوريا.

https://unesdoc.unesco.org/ark:/48223/pf0000264638

- **مقالات حسان عباس في المدن:**

https://www.almodon.com/auther/2014/9/6/%d8%ad%d8%b3%d8%a7%d9%86-%d8%b9%d8%a8%d8%a7%d8%b3

الهوامش والتعليقات

(1) جرى ترتيب المقالات حسب زمن إنجازها وإرسالها من قبل أصحابها الأعزاء.

(2) الفنان سعد فرسو تحدث لعدد من الزملاء والزميلات في غرفة المعلمين، في المدرسة التي يمارس فيها مهنة التعليم – في قامشلي – أنه رأى في منامه أن نظام الأسد يسقط، فوصلت المعلومة إلى إحدى الإداريات، التي أوصلتها بدورها إلى أحد فروع الأمن، حيث استدعي، وتم توقيفه، والتحقيق معه، ونقله من مدرسته فيما بعد!

(3) الرأرأة السورية. حسان عباس المدن 17/10/2013 وكل الإشارات التالية من المقال ذاته.

(4) حسان عباس، **الموسيقا التقليدية في سوريا**، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، اليونسكو 2018، ص. 135.

(5) حسان عباس، **الموسيقا التقليدية في سوريا**، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، اليونسكو 2018.

(6) تمت الاستعانة في كتابة هذا الملحق بمحتويات مقابلة مركز حرمون مع د. حسان عباس وإضافة معلومات عليها.

https://www.harmoon.org/dialogues/%D8%AD%D8%B3%D8%A7%D9%86-%D8%

صدر للكاتب فايز سارة في هذا المحتوى

- سعيد العاص حياته، كفاحه. وزارة الثقافة (دمشق) 1993.
- معالم إنسانية من المشرق العربي. وزارة الثقافة (دمشق) 1996.
- أنطون المقدسي: الحياة والثقافة والمواطنة. دار الأهالي (دمشق) 2005.
- حسين العودات: رحلة القلق والأمل. دار ميسلون (غازي عينتاب تركيا) 2018.

هذا الكتاب..

مايزال د.حسان عباس يضع نفسه وطاقاته في خدمة السوريين، وهو دور يتابعه في ميدان الفعل الثقافي - المعرفي منذ ثلاثة عقود، قضاها حاضراً في كثير من المواقع الموزعة بين مؤسسات التعليم العالي والبحث العلمي إضافة إلى منظمات المجتمع المدني، وخاصة المهتمة منها بقضايا حقوق الإنسان والمواطنة، فكان الناس ولاسيما الشباب محط اهتمامه الأول.

وسط قوس الاهتمامات الواسع، لم يتأخر د.عباس عن الانخراط في موضوعات البحث الثقافي وفي الكتابة والترجمة، فوضع كتباً، وشارك في إصدار أخرى، واشتغل إضافة إلى الترجمة على دراسات وأبحاث، وكتب مقالات، نشرت في مواقع مختلفة، وكله بعض من فيض حياة ثقافية ثرية، عاشها د.عباس مصراً، أن لا يكون لها بعد شخصي فقط، بل بعد وطني سوري، وبعد إنساني من جهة ثانية.

ولأن د.عباس على ما أرى، فقد بادرت لدى أصدقاء من السوريين، وأثمرت المبادرة مساهمات نكرم فيها د. عباس على دوره المميز في الحياة الثقافية - المعرفية لمواطنينا وخاصة الشباب منهم، فكان خير ممثل لفاعلين ومبدعين سوريين كثيرين، يستحقون الاحتفاء بهم وتكريمهم، وهم جزء من فعاليات نخبة سورية حاضرة في قطاعات أخرى، لعبوا أدواراً مهمة في تخصصاتهم رغم كل الصعوبات والتهميش اللذين فرضهما نظام الاستبداد والدكتاتورية والقتل على السوريين ونخبتهم في عهد الأسد الأب، وتحوله إلى نظام قتل وتهجير وتدمير في عهد الأسد الابن.

وأرى مع الأصدقاء المشاركين في هذا الكتاب، أنه مبادرة، ينبغي متابعتها خاصة بعد أن كشفت ثورة السوريين عن قدر هائل من المبدعين الشباب الذي يتوالى ظهورهم في سوريا تحت أسوأ الظروف، وفي بلدان الشتات، التي أعطى بعضها السوريين فرصاً للسير في طريق العلم والمعرفة والمشاركة، فحقق البعض نجاحاً وابداعاً مميزين.

وأجزم، أن في فكرة أصدقائي وأنا عن تكريم المبدعين والمميزين والاحتفاء بهم، ما يتجاوز البعد الشخصي إلى بعد وطني عام، يعزز دور هؤلاء من المخضرمين والشباب في المرحلة المقبلة للاستفادة من قدراتهم وجهودهم في إعادة تطبيع حياة السوريين، والمساهمة النشطة في إعادة بناء بلدهم وانتقاله نحو نظام جديد، يوفر السلام والحرية والعدالة والمساواة لكل السوريين.

شركاء
Partners

0 01504 19552 0